# في الأسبوع سبعة أيام





يوسف القعيد

# في الأسبوع سبعة أيام

يوسف القعيد

**ما شفناك يا نور**

**إلا لما دابت العيون**

"مثل شعبي قديم"

# الفهرس

# [١]

# مدخل لا مبرر له ولكنه يقوم مقام المقدمة

وقت العصاري، دق التليفون في دوار العمـدة. لـم يكن الكاتب موجودا، رد عليه الخفير النوبتجي. طـرد نـوم العصاري من عينيه، ونفض كسل آخر النهار، وقام أمسـك المسماع، لامست أذنه خروشة بعيدة، أبعده، وبـدأ ينصـت؛ لكي يكون الإنصات تاما. مد أصبع يده، سد به أذنه الأخرى أمال رأسه على المسماع، رفع صوته:

- آلو يا نقطة.

ثم صمت. كان اليوم ينحدر بتثاقل نحو نهايته، وهو يبدو يوما خريفيا هشا وهادئا. المار أمام دوار العمدة، فـي ذلك الوقت، لم يكن يسمع سوى كلمات قليلة، منتزعـة مـن جملة، مبتورة المعنى، تخرج مهذبة من فم الخفير:

- نعم، أيوه مضبوط، أي أوامر؟

آخر كلماته كانت:

- أنا الخفير النظامي، من قوة حراسة قرية الضهرية، التابعة لنقطة بوليس التوفيقية، مركز إيتاي البارود – بحيرة يا أفندم.

خرج الخفير من حجرة التليفون، حرك يديه أمام وجهه، دافعا بهما الهواء، مجففا به حبات عرق، نبتت فوق جبهته رغم برودة الجو، اتجه إلى دوار العمدة. في الناحية الأخرى من الباحة الواسعة، أكدت خطواته أهمية ما يحمله. السماء لونها بنفسجي وسحب الخريف اللبنية اللون مشرشرة الحواشي والحدود. دخل دوار العمدة. عند مروره على الزريبة، صافح وجهه هواء بارد مشبع برائحة البهائم والتبن.

العمدة كان نائما. نومه ما بعد الظهر، وما قبل آذان المغرب. الخفير أكد أن الأمر خطير.

- التأجيل – قال الخفير – فيه ضرر.

الكلمات قيلت في إيجاز لم يكن من عادته. وكان العمدة قد خرج في لباس بيتي من حجرة نومه. فرك عينيه اللتين بدتا حمراوين من نوم النهار. جلس ونظر إلى الخفير،

الذي وقف وراح يبحث عن الكلمات في ذهنه، كـي ينقـل الأمر بخطورته كاملة إلى العمدة:

- المأمور اتكلم يا حضرة العمدة..
- بنفسه؟
- قصدي معاون النقطة.
- هوه.
- طبعا

أخذ الحديث بين الجالس والواقف أمامه شكل السؤال والجواب. بكلمات قليلة تكامل الموضوع في ذهـن السـائل والمجيب معا، بسرعة أدرك العمدة المطلـوب. الخفيـر لا يعرف القراءة أو الكتابة؛ لذلك فالتعليمات كانت شفوية. جملة واحدة نقلها الخفير كما هي:

- الأمر عاجل جدا.

حفظها لأنها كررت عليه في التليفون أكثر من مرة.

قبل المغرب، كانت أربع بنادق تتحرك في الشـارع الرئيسي للبلد على شكل هرم، رأسه للأمام وقاعدته للخلف. الهرم كان يبدو كالتالي، شيخ الخفر، وكيله، ووراءهما اثنـان من الخفر. الوقت هو عودة الفلاحين مـن حقـولهم، وأرض

الحواري تئن وتتأوه تحت أقدام الحيوانات بحوافرها الحديدية. في يد شيخ الخفر ورقة بها أسماء. أمام كل اسم، خانة للعنوان وأخرى للتوقيع. خانة العناوين كانت بيضاء؛ فشوارع وحارات القرية بلا أسماء. والبيوت ليست لها أرقام. والكل يعرف البلد ككف يده. على المصاطب، تهامس الرجال، دار الكلام كسولا بطيئا، خرج من الأفواه الخائفة غير واضح ولا محدد.

- سحبوا الرديف الليلة.

نهر من الأسئلة والتعليقات يزحم جو المصاطب، وفي صحن الجامع، وأمام دكاكين البقالة.

- الرديف والاحتياط.

- الاثنان واحد.

- لأ، فيه فرق.

على أبواب البيوت كان موكب الخفر يتوقف، تصفق الأيادي، تخرج من بين الشفاه نداءات معروفة:

- يا ساتر، يا أهل ا .

تطل عيون نسوة وبنات وأطفال. الكل في ملابس البيت.

أول ما تشاهده العيون البندقية المعلقة فـي الكتـف المغطي ببالطو أميري أصفر، ثقيل وخشـن، تجـري نحـو الداخل بعد أن تخبط الباب في وجه الغفيـر تعـود. يبـدو واضحا أنها ارتدت ملابس تظهر بها أمام الرجال الغرباء.

البيوت كثيرة، والأسماء مختلفة، والشبان لـم يكـن وقت وجودهم في البيت قد حل. فهم إمـا فـي الحقـول، أو عادوا منها وذهبوا إلى المسجد للصـلاة، أو وقفـوا علـى رءوس الحواري أو أمام الدكاكين، في انتظار آذان المغرب.

التنبيه واحد بالنسبة للجميع، شيخ الخفر بنفسه، كـان يقول:

- لا دا لازم يسلم نفسه في المركز.
- إمتى؟
- الليلة.. يعني بعد ساعة.
- وما ينفعش بكره؟
- لأ.
- المركز.. المركز.
- مكتب التعبئة.
- إيه؟

- التعبئة.. التعبئة.

تدور الكلمة في الأذهان، يحاول البعض أن يفهمهـا، البعض الآخر يطلب من شيخ الخفر أن ينطقها مرة أخـرى. فهي الكلمة الوحيدة، التي تخرج من فمه بلغة أهل المـدارس والأفندية وسكان البنادر البعيدة. شيخ الخفر لـم يكـن يجـد صعوبة في نطقها بشكل سليم. على كل الأبواب، كانت تزحم الهواء عبارات وتساؤلات وكلمات متناثرة من الأفواه يتناثر معها رذاذ يبلل الوجوه.

- ليه خير؟

- الأوامر كده.

- هو فيه حاجة؟

- أوامر الحكومة.

- يا ترى حايرجعوه إمتى؟

- العلم عند ا .

- دا ابني لسه طالع من شهر.

شيخ الخفر، كان ينهي الحديث بكلمة فاصلة:

- الأوامر هيه الأوامر.

ينطلق لسانه بعدها، في ذكر أنواع العقوبات المختلفة لمن لا يذهب الليلة إلى المركز، سجن، غرامة، إلغاء حيازة الأرض، حرمانه من عضوية الجمعية الزراعية، شيخ الخفر يؤكد لنفسه أن هيبته هي هيبة الحكومة نفسها، ولا مانع لديه من إرهاب الناس، وتخويفهم في كل لحظة. وعندما كان يبدأ في ذكر أنواع العقوبات، كانت الأيادي ترتفع فـي وجهـه، وهو في منتصف حديثه، تقاطعه:

- خلاص رايحين. بلاش كلامك ده.

أذن المغرب، سمع شيخ الخفـر صـيحة الأطفـال "المغرب إدن أفطر يا صايم: فخلت الحواري مـن النـاس. وأصبحت البلد شبه مهجورة. قرر أن يكمل جولتـه، حتـى آخر البلد وبعد الإفطار يمر على العزب والكفور، المتنـاثرة حول البلد، عزمت عليه أكثر من أسرة:

- أنت صايم يا راجل.

ارتفعت يده إلى صدره ورأسه علامة على الشـكر. أحد الرجال استوقفهم، ودخل منزله، خرج ومعـه شـراب بارد.

- غيروا ريقكم بس.

كلما تقدم السير، بد الليل أكثر تأكدا، وأصبحت قراءة الكشف عملية صعبة، في داير الناحية، الشارع الذي يـدور حول البلد كلها على شكل حزام، كانت المهمة سهلة نوعـا. أعمدة النور ترسل الضوء الكافي للقـراءة. فـي الحـواري الضيقة، كانت مساحات الظلام تبتلع كل المرئيات بـداخلها. القراءة كانت تتم من خلال حزمة ضوء خارجة من نافذة أو باب، أو على ألسنة كرة من الضـوء الأصـفر المتـراقص المنبعث من عود كبريت أشعله أحد الخفراء، وتظل الكـرة تصغر، ويبهت نورها حتى تنطفئ، بعد كل بيت كانت يد شيخ الخفراء، تمتد ببقايا قلم كوبيا، ضاع طلاؤه الخـارجي مـن كثرة الاستعمال كي يشطب أسماء، أو يدون كلمـات أمـام أسماء أخرى. كأن يكتب مسافر. خارج البلد، في المستشفى، سيقدم كشف عائلة.

شعرت البلدة كلها بجدية الأمر. عندما انطلـق بعـد أذان العشاء مناد، لف البلد. أن صـوته يخـرج مـن بـين أصوات الأطفال الذين يلعبون في الشوارع، ينطلـق بـأول كلماته:

- يا عباد الله. جاءنا من نقطة بوليس.

يستمر النداء. والكل يستمع إلى أن ينهي نداءه بالعبارة التقليدية:

- والحاضر يعلن الغايب.

ما أن ينزل يده من فوق خده الأيمن، حتى تحاصره آلاف الأسئلة دفعة واحدة، المنادي ليس موظفا، لا يقال عنه رجل حكومة؛ ولذا فهو يعطي نفسه الحق في الشرح والتفسير والتحليل، وله وجهة نظر يقولها: إنه يقف على رءوس الحواري، وأمام دكاكين البقالة وفي الباحات، لا يرد على الأسئلة، وبقدر ما يستطيع، كان يشرح تصوره هو للأمر:

- دي تجربة يا جماعة.

- تجربة؟

- بيجربوا استدعاء الاحتياط ونسبة التخلف.

- يعني إيه بيجربوا؟

ينطلق المنادي، في حديث طويل، ترد على لسانه كلمات جديدة على الآذان لم تتعود سماعها من قبل.

- تسريح الاحتياط، خط التعبئة، تجربة كل شهر، دقة عمل النظام، كفاءة الاستدعاء.

- وعرفت دا كله منين؟

عند هذا يتحرك المنادي، الكل مشغول بما قاله. أمـا المنادي نفسه، فهو معني بأمر آخر، إنه ينادي في شـوارع مضاءة. من قبل كان يعوم في بحار الظلام. تخرجه حزمـة ضوء صغيرة منها؛ ليعود إليها. الآن له ظل في الليل كمـا النهار. إنه يسير وبعد عدد معلوم من الخطوات، يرفع يـده، يقول نفس النداء. ويتوقف كي يجيب على نفس الأسئلة.

صلاة العشاء في المسـجد. الحـديث عـن حكايـة استدعاء الاحتياط. بعد الصلاة تحولوا إلى جماعات صغيرة. قيل كلام كثير في الموضوع، وراح الكل يعد على أصـابع يديه محاولا أن يعرف عدد الذين سيذهبون إلى المركز مـن البلد.

في الضهرية، للسفر والفراق والبعـد عـن الأرض والبيت والأهل حنين خاص. لا تعبر عنه الناس بالكلمـات. يجدون في الصمت والثرثرة والهروب، حيطان أمان يسندون عليها قلوبهم المتآكلة. مر بالضهرية غرباء. مسافرون فـي الليل. قالوا عن قرى الناحية الأخرى. دميسنا السوالم، ششت الأنعام، نكلا العنب. الحال فيها واحـد. الكبـار والصـغار

تحدثوا، قيلت حكايات عن الجهادية والساطة والجيش المرابط وأيام السخرة، وسنوات العسكرية الخمـس التـي أصـبحت ثلاثة، ثم سنة ونصف للمتعلمين. قالوا الكثير عـن الرديـف والخدمة في بلاد الدماء الحارة ومدن الثلج والضباب. الشيخ عبد ا خطيب المسجد كان موجودا. ورغم أنه فوق الثمانين من العمر، إلا أنه أخرج حافظة نقوده، فتحها بـبطء عبثـت أصابعه بجيبها، أخرجت صورة تكسرت ملامحها، وتاهـت معالمها. أفسحوا برءوسهم ممرا للضوء. شاهدوها، قال: إنها صورته، مد أصابعه، أشار بها، حـاول أن يلفـت النظـر لطربوش فوق الرأس، وثلاثة أشرطة على الكتف الأيمـن. وحذاء ضخم في القدمين. وقالشين صوف يلـف السـاقين. العيون تشكل حلقة من البريق. في الصـورة رجـل يقـف كعامود النور الممتد فوقهم. إن حكاية الشيخ عبـد ا تبـدأ الآن. صوته يأتي هادئا وادعا. كخرير المياه فـي الحقـول البعيدة. يرق صوت الرجل وتسيل ملامح وجهـه، وتصـفو الحياة من حوله. الحكاية معروفة. شاب ريفي نصف مـتعلم جند في الجيش، منذ أكثر من نصف قرن، كاد يصـل إلـى رتبة الضابط لولا.

تنحدر بهم الحكاية نحو الماضي، حتى تصـل إلـى هوجة عرابي باشا. فيها سفرات إلى غابات السودان، جبـال الحبشة، مدن يركب سكانها الأفيال، يعودون من رحلتهم على أجنحة الكلمات إلى حكاية المجندين أبناء البلد. كلهم جنـود، فيهم ضباط ثلاثة فقط، اثنان احتياط وواحد عامـل. رتبتـه صغيرة، فلا يزين كتفيه سوى ثلاث نجوم لامعة.

موعد السحور يقترب، ولكنهم ما زالوا في جلستهم. الحديث في مثل هذه الجلسات مثل موج البحر، الجايات أكثر من الرائحات فيه. والذاكرة تمنحهم عالمـا مـن الحكايـات والأصوات والأسماء والتواريخ، فيمتد حبل الحديث.

في نفس الوقت، كان شيخ الخفر، يدق فـوق بـاب دوار العمدة. عندما قابله، خرج بخار مـن فمـه، ففضـح كلماته:

- تمام يا أفندم.

تم التنبيه على البلد كلها، ما عدا.

لم يرد العمدة. ذهـب إلـى الـدوار. فـي حجـرة السلاحليك جلس على مكتب الخفير النوبتجي بنفسه، أمسـك

التليفون وأدار يده. رد عليه معاون النقطة. كـان سـاهرا. فتعب العمدة. أعاد عليه الكلمات التي سمعها من شيخ الخفر.

في الباحة الواسعة أمام الدوار. وقف العمدة ومعـه شيخ الخفر والخفراء، ردوا سلام أكثر من رجل مر علـيهم، تطلع العمدة إلى السماء. وشبك يديه على صدره. طلب مـن الخفير النوبتجي أن يظل ساهرا بجانب التليفون. خطا نحـو داره خطوتين ثم توقف واستدار.

- تصبحوا على خير يا جماعة.

ردودهم أتت متباينة الأصوات، خدش صمت الليل:

- وأنت من أهله يا حضرة العمدة.

# [٢]

# عندما ذهب مصطفى إلى المركز وعاد منه بملابس الجيش

في قريتنا أغنية قديمة، تقول كلماتها، أن كثره الوداع ترقق قلب المسافر. وتسلبه القدرة علـى مواجهـة متاعـب الرحيل، إلى البلاد البعيدة. أسير الآن في طريق العودة إلـى الضهرية، وفي ذهني تطن كلمات أغنية الأيـام العجـوزة، راسمة عالما بأكمله، لما سأواجهه في البلد بعد قليل.

لأمسك بعقد حكاياتي من أول حباته.

العودة من الحقل، مصطفى يتمهل في سيره، العـين على القدم، فأمامه قناة تعترض الطريق، تعكس مياهها ظـل شجرة، وجزءا من سماء رمادية، تفاداها، وقف على جانـب الطريق واستدار، بيده وصوته عاون بهائمه على تخطيهـا، وخلال استدارته، اصطدمت قدمه بطوبة، وقعت في القنـاة، فعكرت مياهها وتوجت، استطالت الصورة وقصـرت فـوق مساحتها الصغيرة. عند مدخل البلد، من الناحيـة البحريـة، نادى عليه شيخ الخفر، وقف فوقفت بهائمه في غير انتظـام.

الأوراق التي في يديه عرفها مصطفى. طلب استدعاء. أعطاه الأصل وأخذ الصورة. طلب منه التوقيع بالاستلام، أفهمه بضرورة الذهاب إلى المركز الليلة، أو صباح الغد على الأكثر.

- وذنبك على جنبك.

قالها وهو يسير مبتعدا.

رفع مصطفى عينيه، كان جلباب الشيخ أحمد، فوق مئذنة المسجد، تعبث به نسمات الغروب. حاول أن يسرع في سيره، البهائم كانت بطيئة في البيت دخل الزريبة، تماما مثل كل الأماسي، ربط البهائم، وضع العلف لها في المداود. أثناء خروجه من الزريبة، لفت نظره بطن الجاموسة المنتفخ، وبدت له قدماها الخلفيتان مقوستين من ثقل الحمل عليهما.

حول الطبلية، أمه وأخته والغزالي، شقيقه الأصغر. إنهم يأكلون. وسط صوت اصطدام الملاعق بالأواني والأطباق وتشدق الأفواه بالطعام، قال بشكل عرضي:

- انطلبت للعسكرية الليلة.

توقفت أمه عن المضغ، وأطل من داخل عينيها تساؤل مبهم، وتحول وجه أخته إلى علامة استفهام، في

الأشهر الأخيرة، تعود أن يذهب إلى المركز، أول كل شهر، حيث يوقع له، في سجل معه، بالحضور. وكل سـتة أشـهر كان يذهب إلى وحدته القديمة، عشرة أيام للتدريب، كان هذا نظاما متبعا، ينفذه بدقة. الأمس كان يوم الاثنين، أول يوم في الشهر. ذهب مصطفى إلى المركز وعـاد. الأشـهر السـتة الثانية لم تنقض بعد. وفي هذه الفترة كان مصـطفى يحمـل علامة خارجية فوق الجلباب. كان يلبس سترة كاكي قديمـة، فوق الكتف شريطان، كل من يشاهده، كان يعرف الحكايـة يسأله على الفور.

- طلعت من الجيش إمتى يا دفعة، إزيك..

أكل طعامه، شبع وقال الحمد ، غسل يديه، وأخـذ كوب الشاي المعد، بدا يتحدث، الصوت خافت والكلمات تبدو عادية، حديثة عن البيات الشتوي في الحقل، قلـب الأرض، ري البرسيم، تسميد أرض القمح، تنقية الحشائش من خطين فول وخطين كرنب على رأس الحقل. انزلقت علـى لسـانه أرقام ماله وما عليه، حسابات الجمعية التعاونية. خرج وعاد أكثر من مرة، داعبهم وضحك معهم كثيرا أخرج من جيبـه

أربعة قروش وأرسل نورا تشتري قصبا يتسلون بـه حتـى السحور.

أخذ وجه الغزالي بين يديه وداعبه، بعـد السـحور ذهب كل واحد منهم إلى مكان نومه، خيم على البيت صمت مشحون. لكن أحدا لم ينم. بدت الليلة بطـول العمـر كلـه، مصطفى ينتظر صيحة ديك تنشر الفزع والاضطراب بـين ديكة البلد كلها.. انتظرها، ولكنها تأخرت كثيرا هذه الليلة.

الصباح، الذهاب إلى العمل، تركه، التوجه إلى إيتاي البارود. سفر عادي. أمام المركز جمع من الشباب يعـرف الكثير منهم، في المركز، سمع اسمه ينادى، تكـرر النـداء فجرى، كتب اسمه أكثر من مرة في دفاتر مختلفـة الألـوان والأحجام، أعطوه استمارة سفر، قاده واحد منهم إلى مخـزن رطب معتم، أخذ مهماته، المطلوب منه أن يسلم نفسـه إلـى وحدته في ظرف ٢٤ ساعة.

ركب السيارة الذاهبة إلى البلد، وهو فـي الطريـق، نظر إلى الحقول، شربت عيناه خضـرة النباتـات وسـمرة الأرض، ورزقة السماء. أحس براحة، شعر أن قلبه الجـاف مدهون بطبقة ناعمة من الزبد. بدت له الضـهرية، كانـت

سحب الخريف المتناثرة في كسل، تكـاد تلامـس الحطـب المنتشر فوق البيوت.

في البلد، ذهب إلى الحلاق، قص شعره، وحلق ذقنه وسوى شاربه، استحم بمياه دافئـة، وبـدأ يرتـدي ملابـس الجيش، وجد نفسه مجبرا مرة أخرى على إدخال قدميه فـي بنطلون الأفرول.. لبس الشدة. شبك في كم سـترته الأيمـن شريطين، وضع الطاقية فوق رأسه، ضـبطها ثـم خلعهـا وأمسكها في يده، وشعر بخشونة الجورب الصـوف علـى ساقيه، وثقل الحذاء الميري الأسود في قدميه، بصوته عنـد المشي على الأرض. الفلاح أصبح في غمضة عين العريف مصطفى.

للجندي في بيوت الريـف رائحـة خاصـة؛ لـون ملابسه، نعومة جلد ذقنه، شعره الذي لا يبـدو مـن تحـت الطاقية الكاكي، ملابسه المغسولة المكوية، وهـو لا يشـاهد بهذا الشكل، إلا مرتين، لحظة قدومه في إجازة أو سفره إلى وحدته.

وقف أمام أمه، لم يتكلم، كانت أصـابعها تتحـرك، بشكل لا إرادي، كأنها تضرب على أوتار خفية، لحنا صامتا من الخوف والرعشة والحب. لحنا لم يسمعه أحد.

- مسافر يا ابني.

- إن شاء ا .

أكمل:

- خلي بالك من زرعة الشتا.

أوصاها بالحقل، على أصابعه عد ما فيـه، حـوض البرسيم البحري، يحتاج كيماوي مع الريـة القادمـة، أرض القمح تبدر مع المناوبة، الفول مطلوب عزقه وتنقيته، الكرنب لابد من إخلاء الأرض منه تمهيدا لزراعتهـا خُبيـزة مـع الشتاء.

الصمت بينهما يحتوي بداخله سـيلا مـن الكلمـات والمعاني الدافئة، شملهما هدوء مستتب. لقـد بـات وقـت العصاري مسموعا. إنهما يسمعان خشخشة أوراق الشـجرة العجوز القائمة أمام باب البيت، وحفيـف أجنحـة الطيـور. ارتعش القلب. وعلى طرف لسان كل منهما، كانـت تقـف

كلمات وقصص وحكايات، لكنها لم تخرج، قبل أن يتحـرك، اقتربت منه أمه:

- افطر وبعدين سافر.

- المواعيد. سفر الليل صعب.

تشابكت الأيدي. في المرة الأولى لسفر مصطفى في الزمان القديم، اكتشفت أن طفلها قد غدا رجلا دفعة واحدة.

في العينين طفولة، ولكن فوق ملامح الوجـه بـدت خطوط الإعياء والجهد ورعشة اللقاء مع المجهـول. وفـي أصابع اليدين. بدأت خشونة الفأس والمحراث تذوب مع الماء الدافئ والصابون، نظرت في وجهه طويلا. أدركـت ربمـا لأول مرة أن في مصطفى الكثير من والده. أنه هو:

- الخالق الناطق.

سكبت في نظراتها عواطف وحديثًا صامتًا وكلماتٍ.

قالت له، وبسمة غريبة ترقص على ملامح الوجه:

- فاكر سفرك أول مرة؟

هز رأسه ومن قاع خياله رأى امرأة أخرى، بها قدر من الجمال، كان الأب موجودا، وكانت شابة، وكنت طفـلا.

الغزالي كان قطعة لحم حمراء، يبدو جزء منها وسط اللفائف، ويديه تعبثان بالهواء بلا هدف، آه، كانت أيام.

الرغبة في الحديث تحرقه، يود أن يقول الكثير، ابتلع كلماته. هي أيضا صمتت ولكن في لحظة ما. لا يدري أحد متى تأتي هذه اللحظة، ستفرض نفسها رغما عنهما. وسيغفران لبعضهما بعدها هذا الصمت الطويل المفعم.

الرحيل هذه المرة له طعم. جاء مبكرا. كالفرخ البكر الذي يطير من العش قبل الآوان. تفوح من فم مصطفى رائحة الصيام. المغرب لم يحن بعد. طريق السفر سكة في الخيال. ولكنه طويل. أمه تطلب منه التوقف، في غرفة المعاش، غزلت مما وجدته حجاب حب. لم تكن تدري ماذا تفعل، فردت ورقة مبقعة، وضعت عليها كل ما وجدته، وتذكرت السنوات السابقة، كان مصطفى يطلب منها أن تكثر من كل صنف. فزملاؤه بالخيمة، يأكلون معه.

سلم وسار، الحارة، داير الناحية، البيوت والدكاكين والناس. كان عليه أن يلسم ويتكلم، ويجيب على الأسئلة، الهواء خريفي ناعم، والسماء نهر من الزرقة، في اليد اليسرى ورقة ملفوفة ومربوطة بدبارة، وفي اليمنى طاقيته

ومفتاح. الطريق هو نفس الطريق. ولكن الشاب تغير كثيـرا مر بالحمامات التي يعمل بها. استدارت عيناه، بحثـا عـن مكان حقله، لم يستطع تمييزه، اصطدمت رموش العين بخط الأفق البعيد، وللخريف لون رصاصي منطفئ ينتشر في كل الألوان. يمتص بهجتها وتميزها، هدوء الغسق أقـرب إلـى النوم، حنين مصطفى إلى الحقل والـزرع والترعـة يـذيب الفؤاد، قبل عودته بالأمس من الحقل شاهد نبـات البرسـيم، أعواده شققت الأرض، كان لعناق الأخضر والأسمر، شـكل راعش، القمح لم ينبت، هجم البرد على الحقـل، وإن كـان وجهه لم تبلله قطرات مطر هذا العام بعد. شم رائحة الأرض الشراقي في انتظار المياه التي تطفئ ظمأها.

نظر خلفه، لم يشاهد لظله الطويل نهاية. وعلى آخر الشوف. لم يكن يبدو من الجسر سوى دوائر الغبـار التـي كانت تثيرها السيارات في الذهاب والعـودة. اقتـرب مـن الجسر، شاهد زملاءه، الكل في الانتظار، رفع يده، ظلل بها عينيه، ذكره المنظر الذي خرج من أشعة الشمس الصـفراء الباهتة، بسنوات الجندية، فهتف لنفسه في صوت خافت:

- وا زمان.

اقترب منهم على مهل، على الجسر الحديدي خبط قدميه، نافضا عنهما التراب العالق بهما من الطريق الترابي الطويل، واصل سيره، ورفع صوته:

- السلام عليكم يا رجالة.

ترك ما بيده على الأرض، ولبس طاقيته، وأقبل على الواقفين.

- وعليكم السلام ورحمة ا وبركاته.

تحولوا إلى دائرة، الصدور تحمل أيادي متشابكة، والأفواه تتحرك بحماس وفرحة، العيون تدور في المحاجر بسرعة، الكلمات تبدأ فاترة ولكنها تشتعل من بعضها، إنهم يتكلمون، وللحديث مفردات مختلفة، حضرة الصول، الشاويش، الدفعة، أسماء جديدة تطل عليهم، الموضوع واحد. متاعب السفر، آلام الفراق، وتمني العودة إلى البلد، الجيش وحياة العسكرية، الذهاب إلى المعسكرات ليلا، وربما التوجه إلى الميدان، المرتبات، استعادة النشاط، العودة إلى حياة الضبط والربط والطوابير والمناورات وليالي الخدمة والنوبتجية والسهر حتى الصباح.

خلال الحديث، سأل كل منهم الآخر عـن طريقـه، وانفطر عقد الجماعة، إلى جماعات صغيرة. العيون معلقـة على نقطة في الأفق البعيد، حيث تخرج السيارات القادمة من وسط الأشجار والحقول والتواءات الطريق، الكلمـات تقـال متباعدة كسولة، مساحات الصـمت تطـول، الفتـور يعلـو الوجوه.

إنه الانتظار.

# [٣]

# النار تشتعل. الماء يغلي. الغزالي ونورا يحاولان الغناء ويشعران بمشاعر غريبة

بدت لحظة الوداع هكذا مصطفى أمام أمه، الوجه في الوجه، العين مغموسة في العين، نورا تقف مبتعدة، الغزالي يقترب من أخيه، يبدو ضئيلا بين الأقدام:

- مصطفى رايح فين؟

- مسافر.

- فين؟

أمسكته نورا من يديه:

- الجهادية.

وجه الغزالي محاط بطبقة رقيقة من الأشياء التي لا يفهمها، وعند سفر أحد من العائلة لا يكون للغزالي هم سوى أن يطلب السفر معه، لا يدري عن السفر إلا أنه ذهاب إلى الجسر، وانتظار، وركوب سيارة تسابق الريح. تشبثت بمصطفى.

- خذني معاك.

هوت عليه يد أمه، تصميمه على السـفر، جعلـه لا يشعر بألم الصفعة. مصطفى نظر إليه. قـال لأمـه: إنهمـا مسافران معا، نظر في عيني أمه، نظرة طويلة، قالت العيون من خلالها ما لم يفهمه الغزالي. على عتبـة الـدار جلـس مصطفى، وطلب من أمه أن تدخل لتلبس الغزالـي ملابـس السفر، فالجلباب والقدم الحافي لا يصلحان للبنـادر البعيـدة. تباطأت أمه، سحبته إلى الداخل، استعجلها، شـتمها، هجـم عليها، ركلها بقدمه الصغير في بطنها، أكمل ارتداء ملابسه. عند حضوره كانت عتبة الدار خالية، فهم الغزالي سر النظرة المتأنية التي تبادلها مصطفى مع أمه.

وأدرك أنهم ضحكوا عليـه. بكـى، جـرى، نـورا أمسكته، حملته على صدرها، قالت له: إنه رجل البيت الآن، الوالد يرقد في المقابر قبلي البلد، الأخ الأكبر ناداه صـوت المكن في كفر الدوار، ومصطفى، آخر الديوك، هجر العـش اليوم.

في القاعة القائمة في قاع الدار، المطعونة بمساحات الظلام، خلع الغزالي ملابس السـفر، فـي ذهنـه الصـغير والبسيط، كانت آلاف الأشياء المعقدة والمتشابكة، غير القابلة

للفهم، تدور حول نفسها. خرج من القاعة، في وسط الـدار. كانت نورا تجلس أمام الكانون، تشعل النار تحت إناء ضخم، جلس بجوارها، فبدت له أجمل بنات العالم كله. اقترب منهـا حتى التصق بها، رفع يده وأمسـك ذقنهـا، وأدار بصـرها ناحيته، ثبت عينيه في عينيها، وحـار مـاذا يقـول، تلعـثم وهربت منه الكلمات، ولكنه اهتدى إلى سؤال، كان يـود أن يعرف لم ينام الأب قبلي البلد؟ ومتى يقوم من رقدتـه؟ ولـم يقيم أخوه الكبير، والذي كان يظنه والدهم في كفـر الـدوار بمفرده؟ وما السبب في سفر مصطفى المفاجئ إلى الجهادية؟

آخر الأسئلة كانت:

- وإزاي أبقى راجل البيت وأنا...

سمعت نورا مقالته كلها. خبت النار داخل الكـانون، فمدت يدها برفق. وأنزلت أصـابعه الصـغيرة، المحيطـة بذقنها، استدارت واقتربت من فم الكانون، تحول فمهـا إلـى كرة، جلد الصدغين مشدود على آخره، والفم دائرة صـغيرة في حجم حبة التوت. استمرت تـنفخ النـار حتـى طقطـق الحطب، واشتعلت النار وكركر الماء من الغليان. إن غطـاء الإناء يتراقص في هدوء ونعومة. وأثناء تحركه، فإن كـتلا

من البخار الأبيض تخرج، اقتربت نورا من الإناء، رفعـت الغطاء، نظرت بداخله، تاهت ملامح وجههـا فـي ضـباب أبيض، أعادت الغطاء إلى مكانه، فانقطع البخار.

ومن البخار خرجت له ملامح وجه أختـه. علـى رموش العين تعلقت قطرات الماء. الوجـه ازداد احمـرارا وحلاوة، قرصها الغزالي في يدها، فتذكرت ما قالـه، هـي نفسها لم تكن تعرف. سنوات عمرها ضعف سنوات عمـره بالتمام والكمال. لم تذهب إلى مدرسـة، ولـم تخـرج إلـى الشارع، آخر حدود عالمها. البيت بحجراته أو الحقل بساقيته وأشجاره. شاهدت نعش الأب يخرج من بيتهم ذات صـباح. في الحارة رأيت صفين من الرجال يجلسون مسـتندين إلـى الحائط في صمت. الصفان لم تكن لهما نهاية. ومع امتدادهما كانت الرجال تتحول إلى نقط صغيرة باهتـة. رأت أخاهـا الأكبر مرة أو مرتين، يقال: إنه يعيش في كفر الـدوار. لـه بيت وأولاد. وإنه ينام على سرير مـن النحـاس الأصـفر الأصلي. وإن زوجته من بنات البنـدر، بيضـاء وسـمينة، وعيناها سوداوان مفنجلتان. لا تعرف عمله، يقال: سـائق أو رئيس عنبر. رحل اليوم آخر رجال البيت. لا تدري السبب.

الباقي علمه عند ا . نظرت إلى الغزالي، احتارت ماذا تقول له:

- لما تكبر تعرف كل اللي بتسأل عليه.

خبط الغزالي يده على الأرض بجانبه، بنفاذ صـبر، توقعت أن يسألها، سؤاله القديم، متى يكبر، ومتى يعـرف؟ الحديث عن مصطفى يعود إلى الشفاه:

- مصطفى خدوه الجيش؟

- ليه؟

- طلبوه.

- إزاي؟

- الحكومة عايزة كده.

- هو الجيش فين؟

السؤال والجواب كالكرة بينهمـا، ذكرتـه بالسـنة الماضية، أيام أن كان مصطفى كالضيف، يزورهم كل شهر ونصف لمدة خمسة أيام فقط، يسافر بعدها، ثم عاد ليعـيش بينهم، أمس فقط طالبوه:

كلها عشر تيام ويرجع.

على أصابع يدها بدأت تعد الأيام العشـرة، حـددت يوما بعينه، سيعود فيه مصطفى، لم يدرك الغزالي كـل مـا قيل، شعر بخوف غامض، صمت، وبدأ خياله يعبث بالكلمات والصور. مصطفى في الجيش يستقبل حياته الجديدة. سـأل لماذا لم يأخذوه هو بدلا منه؟ قالت أخته: إنه مازال صغيرا، أمامه عشرة أعوام حتى يختم في المركز تحت الطلب، بعدها إجراءات طويلة، قالت له الكثير، كل ما قالته كان تصـورا ساذجا لحياة المعسكرات. استشهدت فيما قالته بكل ما سمعته من مصطفى بعد عودته من العسكرية. الكلمات تنزلق مـن لسان نورا، لتسلم الغزالي لمتاهات واسعة. اقتـرب منهـا، وضعت يدها على رأسه، عبثت أصـابعها بشـعره، أحـس بدفء الأصابع فوق جلد رأسه، فاقترب وطلب منها أن تغني له. أشارت إلى الكانون. وناره التي هدأت، بدأ يكوم الحطب بيديه. حاول أن ينفخ الهواء، فمه كان صغيرا، أمسك بطرفي جلبابه، حركهما، باعثا بهما الهواء. مع صوت النار وهـي تشتعل، وطقطقة عيدان الحطب، بدأت نورا تغنـي، وسـأل صوتها العذب في أذنيه، كأحلى ما في هذا العـالم الكبيـر. الأغنية كانت كلمات جندي، يطمئن بها قلب الأم قبل السفر.

- إياك يا أمه تبكي.

في الوابور مفرفشين.

إياك يا أمه تبكى.

في الخيمة متجمعين.

وإن مت يا أمه ابعتي.

إبراهيم وبعده إسماعين.

أنصت لها. رماد الخوف يدور حول القلب، أعجبه الصوت، تنحنح، شرب قليلا من الماء ليسلك زوره، اقترب من أخته، انطلق صوته معها، ركز عينيه على عروق رقبتها المنتخفة، ورفع يده إلى رقبته. عروقه كانت أصغر من أن تشعر بها أصابعه. خرج صوته خجولا متقطعا، وبدا له اللهب الخارج من فوهة الكانون، بصيصا من الضوء في عتمة كبيرة، توقفت نورا عن الغناء، فوجد نفسه يغني بمفرده. شر بخجل حار كشمس بؤونة، فتوقف وغطى وجهه بيديه، وخبط أخته برأسه في صدرها. كور يديه وبدأ يضربها ضحكت، أبعدته برفق، كانت قطرة دموع عكرة تجول في مآقيها. رفعت ذيل جلبابها ومسحت به عينيها، إنها تنفخ النار من جديد. الغزالي يتجه نحو الباب. قرآن ما قبل

الإفطار يأتيه من مكبر صوت معلق فوق الجـامع القريـب. وبين الآيات كان يصله أزيز مكبر الصوت واضحا. طبليـة الإفطار تتوسطهم، الغزالي لا يصوم رمضان. ولكن جلوسه للطعام يسبق الصائمين أنفسهم. لاحظ الثلاثـة خلـو مكـان مصطفى. انتظروا حتى لامس آذانهم صوت المؤذن ينطـق بالشهادتين.

لم تمتد الأيادي للطعام. العيـون السـت ارتفعـت، نظرت إلى أعلى، إلى دائرة صغيرة تطل عليهم من سـماء خريفية صافية عميقة الزرقة.

- روح يا ابني ربنا يفتحها في وشك.

ويجعل لك في كل خطوة سلامة.

كلمة والثانية وتهدج الصوت، الأحرف تخرج مـن الفم هشة متآكلة، الوجه غابة من التجاعيد، الانفعالات التـي فشلت الأم في السيطرة عليها، حفرت أخدودا عميقا يمتد من العين إلى الرقبة، وخلاله انزلقت أول قطرة دمع، انحـدرت بسرعة، تركت خلفها مجرى لامعا، بدأ لمعانه وسط رمادية المساء الذي بدأ يهبط عليهم في ذلك الوقت.

الغزالي يرفع يده نحو السماء، هكذا يفعـل الرجـال ساعة الدعاء في المسجد، شفتي نورا تتحركـان بشـكل لا إرادي، الغزالي يحرك شفتيه، ويفهم الأمر كله على أنه دعاء من أجل مصطفى الذي يتناول إفطـاره الآن فـي مكـان لا يعرفه. دعاء الأم يتحول إلى نغمة حب واشـتياق وخـوف، يداها تقتربان من الوجه، تلتحم أصابعها بالأخاديد والتجاعيد، فيدو جزء من الوجه، تمسح بهما عليه.

في صمت تناولوا الإفطار، في الأيام السابقة، كـان مصطفى يشيع جوا خاصا حول الطبلية، حديثه عن الحقـل والمبيدات والمحاصيل والبهائم ووظيفته الجديدة، سرعته في الأكل، أخبار البلد، حكايات الناس، تذكر الغزالي، أن أختـه قالت له إنه أصبح رجل البيت حتى يعود مصطفى، فتوقـف عن مضغ لقمة كانت في فمه، ورفع رأسه، وفعل كما يفعـل الرجال في مجالس الصمت:

- وحدوه.

لم تستمع أذناه، هديرا إنسانيا، أقرب إلـى التمتمـة، يؤكد ألا اله إلا ا . نظـرت إليـه أمـه نظـرة مستسـلمة واستمرت جلستهم، ككل جلسات الليـالي السـابقة، الأكـل،

شرب الشاي، حضور شباب البلد، أصدقاء مصطفى، الكثير منهم لم يكن يعرف سفره، السؤال عن أسباب السفر ووقـت العودة. وقبل أن يعطيهم الشاب ظهره ذاهبا، كـان يعـرض خدماته ونقوده القليلة ووقته وجهده.

- مصطفى أخويا.

صوت رشفات الشاي بين فم نورا وأمها يبدو مختلطا بأصوات رمضانية، تأتي من الدور الأخرى والحارة.

الأم تحدث نورا:

- بكره لازم.

الحديث عن أعمال لابد أن تـتم فـي الحقـل. ري وعزق ورمي بذور ورش كيماوي ونقل سماد، وبعض هـذه الأعمال لا يقبل التأجيل يوما واحدا.

- سمعتهم – قالت نورا – بيتكلمـوا عـن الحـرب الليلة.

رمشت عينا الأم، قطعت عودا من الحصيرة التـي يجلسون عليها؛ لكي تنظف به أسنانها، بعد طعام جاف خال من الدسم واللحوم. سوت العود، وقربته من عينيها، ومـدت به يدها إلى فمها.

قالت والعود بين أسنانها:

- كله بإذنه.

# [٤]

# مسألة السفر في رمضان. والإفطار في الطريق والعوم في بحار الكلمات مع الأصدقاء القدامى

في الموقف انتظر طويلا، هبت من ناحية الجنـوب نسمة هواء باردة، فوضع يديه في جيبـي أفرولـه، شـعر بالغربة لدى ملامسة أصابعه للأفرول، ضحك وتكلم كثيـرا. اقترب منه أكثر من رجل كانوا يقفون في الموقف، الـبعض على سفر مثله، والبعض يسلي صيامه، الأصيل وقت تطول فيه الظلال حتى تصبح خطوطا نحيلة ممصوصـة، تتعـرج على الأرض. وفيه يكبس على الضهرية وسن لذيذ.

اقترب منه أحد تلاميذ المدارس:

- أهلا.

صافحه. ولكن المحارب القديم، يتعامل مـع عالمـه بصمت جياش زاخر. حضرت السيارة، وقف على رفرفهـا

الأيمن. هبت عليه رياح باردة، فوضع ما معه على سـطح السيارة، ومن فوقه كان ينسدل بحر مـن الزرقـة سـارت العربة، الحقول والأشجار والناس تبتعد، خط الأفـق البعيـد يدور دورة بطيئة مركزها السيارة. في الغرب قرص الشمس أصبح نحاسي اللون، يبصق نورا باهتا، نصفه غطس تحـت خط الأفق، والنصف الآخر يبدو بلونه النحاسي المشع. فـي التوفيقية، تكرر الوقوف، وضع يديه فـي جيبـي الأفـرول يتمشى. ركب السيارة من جديد. هذه المرة جلس بداخلها. في الطريق أُذن للمغرب. عرف ذلك من ساعة راكب بجـواره، وأكدته له حواري قرية مرت عليها السيارة، فبـدت خاليـة مهجورة من الناس. في كفر الزيات، كان عليـه أن يفطـر. على مقهى صغير جلس، أخرج طعاما من ورقة كانت معه، جلس يأكل، امتدت يده إلى الطعام، شعر بنظرات الآخـرين كإبر تنخره في جسمه، فتذكر نعمة الستر والبيت والجـدران الأربعة وأمه. كان يأكل بمفرده. المغرب فات وقته. أسـرع في أكله، توقف عن المضغ قال لنفسه:

- دلوقت بيشربوا الدور التالت من الشاي.

بعد تسريحه من الخدمة العسكرية، قالوا له: اذهـب إلى البلد. وسيصلك خطاب التعيين في وظيفة حكومية. ثماني سنوات قضاها تحت السلاح. كما يقول أهل الضهرية. فـي البلد، انتظر أسبوعا، في كل صباح، كان يرسل الغزالي إلى مكتب البريد، يسأل عن خطاب باسم مصطفى.

- لا يا بني. تكرر ذهاب الغزالـي، فسـأله وكيـل مكتب البوسطة:

- إيه الحكاية يا ولد؟

تشعلق الطفل بالمكتب، حتى شاهده الرجل، السـؤال ظل معلقا، فالغزالي لم يستطع الرد، ذهب مصطفى بنفسـه إلى المكتب. تذكر وهو سائر أنه ذهب إلى العسـكرية لأول مرة، وفي ذقنه شعيرات متناثرة، لم يجر الموسى عليها، عاد وقد اسود جلد ذقنه من غزارة منابت الشعر فيـه. طريقـة سيره تؤكد أنه أصبح رجلا. مصطفى لا يشاهده كثيرا خارج البيت. هكذا حال كل الذين يعـودون إلـى الضـهرية فـي الحواري والشوارع، مصطفى نما جسمه، يكاد يخـرج مـن جلباب قديم يرتديه. في المكتب، سلم وجلس، تنقلت الكلمات بين الرجلين. فهم مصطفى بعد جهد، أن خطـاب التعيـين،

سيرسل إلى مكتب التجنيد في المركز، تـردد علـى إيتـاي البارود عشرة أيام. في كل مرة كان يسـأل عـن خطـاب التعيين. وهناك كانت أذناه تسمعان ردا قديما من فـم رجـل عجوز:

- فوت بكره.

بين السؤال والجواب، أخذ وعطاء، ثرثرة عـابرة، الموضوع واحد، الوظيفة التي سيحصل عليها من الجـيش، أكد له الرجل صعوبة الحصول على وظيفة.

- معاك شهادة؟

- لأ

- قبل الجيش كنت.

- مزارع.

- فهمت.

أفهمه الرجل، ستعطيه الحكومة أرضا.

- تأجير ولا تمليك؟

تاه رد الرجل وسط ضوضاء أصوات كثيرة. الأيـام أكدت عكس هذا، ذات مساء حضر خفير نبه عليه بضرورة

الذهاب إلى المركز، ومن نفس الرجل العجوز، تسلم خطاب التعيين:

خفير على الحمامات العمومية، ومرافقها بالضهرية.

كفر الزيات، طنطا، بنها لم تكـن آخـر المطـاف، الطريق لا يزال طويلا. في محطة بنها، قابل زملاء الأيـام القديمة، صافحهم، اكتشف أن يده خشنة ومشـققة، مغطـاة بطبقة من القشر الجاف، مثل أرض شراقي تطلب الماء مـن فترة طويلة. رمى نفسه في أحضانهم، شلالا الكلمات يكـون جسورا من الألفة والمودة.

- وحشتوني..
- أنت أكتر..

الكلمات اللاهثة عن الحال بعد التسريح من الخدمة، السؤال الملح عن أمرين، الوظيفة والزواج. مصـطفى يعـد رب أسرة، شقيقه الذي سافر إلى كفر الـدوار. لا يحسـب، زواج مصطفى مؤجل حتى الآن. لم تدخل البيت عـروس، هذا الأمر يحزن أمه.

ذكريات السنوات الماضية تعـود، عقـد الحكايـات القديمة ينفرط، كحبات مسبحة طويلة، بطول العمـر نفسـه،

الضحكات والبسمات ترقص على الشفاه. الكلمـات ترسـم مواقف حدثت لهم، لم ينسها واحد منهم. سألوا عـن موعـد القطار الذاهب إلى الجبهة، اكتشفوا أنه تفصلهم عنه ساعات ثلاث طوال، أتقرح أحدهم أن يتمشوا فـي شـوارع بنهـا تضييعا للوقت.

الجو معطر بذكريات وحكايا جميلة. مصطفى يسير معهم. رأى امرأة تجلس على أحد الأرصفة، فتـذكر أمـه. تعجب من أمره. كم تبدو أمه نائية عنه؟!

سأل أحدهم:

- إنما إيه أخبار الاستدعاء؟

رد واحد:

- اختبار كفاءة.

- إيه؟

- كفاءة نظام التعبئة الجديد.

في وسطهم شاب متعلم، مد أصبعه، أراح بها نظارته على منخاريه:

- لا، دي مناورة، حا تبدأ الساعة ٦٠٠ الصبح لغاية يوم الخميس.

- يعني بعد بكره.

- تمام، التسريح يوم الجمعة.

أكمل واحد منهم:

- علشان نروح مصالحنا الحكومية السبت صباحا.

- حاول أحدهم أن يضحك:

- دي اللي دخلت مخك.

في القطار الحربي عثر مصطفى على مكـان خـال بجوار النافذة، جلس، تحرك القطار، أسند خده علـى يـده. انزلقت نسمات هواء باردة على وجهه، أغمض عينيه، شعر برغبة في النوم، صوت اصـطدام عجـلات القطـار مـع القضبان انتظم في أذنيه. الظلام مستتب أمام العيـون. مـن خلال العتمة، حاول أن يرى أعمدة التليفونات، ولكن الظلام كان شاملا، في داخل العربة، كتلة الأصوات، الكـل يـتكلم، الأذن لا تستطيع أن تلتقط حرفا واحدا مما يقال، مع شـلال الكلمات رائحة دخان وأطعمة وملابس جديدة وعرق رجال.

وسط عناق الضجيج مع صوت القطار، ارتفعت يد، نقرت على خشب المقاعد. الدقات تبدأ رتيبة، غير منتظمـة خافتة، يحاول البعض أن يستمع. الدقات تعلو، يخـرج مـن

الضجيج وصوت القطار لحن، يغنيه أحد المسافرين. الكلمات عن مصر. يبدو أنه يرتجلها، تبدأ كلمات الأغنية مع خريطة مصر. من الشمال. بلاد الأيام الباردة وسيول المطر.

يا الإسكندرية.. ياه.

والمرسي أبو العباس. ياه.

والحضرة.. ياه.

والمندرة.. ياه.

الهبوط جنوبا، عكس اتجاه النيل، الطواف بكل مـا تراه العين، الأيادي تصفق مع الدقات، الحناجر تغني معـه. يبدأ الصوت هادئًا من الكل. ومع كل كلمـة جديـدة يرتفـع الصوت. الأغنية كلماتها خشنة، غير منسقة، ولكنها تتحـول ببطء إلى وسادة ناعمة من الحرير يرتـاح فوقهـا القلـب.. الصوت الجاف يصبح نغمة حب، توقف المغني كي يمسـح عرقه، حال الظلام دون رؤيته. صاح أحدهم:

- غن علشان نشوفك.

الغناء من جديد، الأغنية تحكي عن جندي ودع أمـه الفلاحة. ركب الحصان ونزل إلى الميدان، كان وحيد أمـه. أبوه مات منذ سنوات. قدما الأم لم تعرفا أي مكـان سـوى

بيتها. الجندي يحكي لامه ما شاهده في السفر والترحال في بر مصر. يقول إنه لولا العسكرية، ما صعد مع النيل إلى الشلالات، ولا هبط معه حتى نساء الشمال اللينة الجميلة.

تصف الأغنية أرضا خضراء وصحاري جاثية وسط أنهار الخضرة، وتنبعث من الكلمات عيون مفنجلة، تترك الابن عندها قلبه وديعة، دون أن يحصل على إيصال يسترده به. كان يحدو وهم يرددون وراءه، وعندما كان يتوقف، فإن النكات تنطلق، عن أهل مصر. قالوا: مائة نوري ولا واحد دمنهوري. وقف أحدهم وصاح في الظلام. سألهم: إن كانوا يعرفون كيفية إكرام الضيف، من طعام وتسلية ونوم. هو وحماره بقرش صاغ واحد. اعترض صوت بأن ذلك كان في زمان الرخاء القديم. أضاف آخر بأن هذا يحدث في دمياط فقط. تحولوا إلى مجموعات صغيرة، التعارف بالصوت واللمس وشم الرائحة وسط الظلام. أبطا القطار من سيره، وقف. أطل أكثر من واحد من النوافذ، غمس وجهه في الظلام، وعاد ليقول إن القطار أمامه تصليح في الطريق. ولكنهم عندما توقف القطار تماما. وسمعوا صوت فرملة

عجلاته على القضبان، واهتزوا جميعـا، وتكومـوا فـوق بعضهم، أدركوا أنها نهاية الخط.

وقفوا على الرمال، أضواء بطاريات حمراء اللـون، تشير إلى الطريق الوحدات. لسان من الضوء الأحمر يعبـر الوجوه بسرعة. وخلال المرور لا يبدو من الوجه غير عين أو أنف أو فم. ويعبره الضوء. حاول مصطفى أن يعثر على زملائه القدامى.

ولكنه اكتشف أن الأشهر العشرة أذابـت ملامحهـم الخاصة. سألوا أحد أفراد الشرطة، بكلمات قليلة أحيـا فـي أذهانهم طريقا سبق أن قطعوه في النهارات الصحوة والليالي المثقلة بمكعبات الظلام ساروا. بدت الجبال مسـاحات مـن العتمة. هبت ريح خريفية شموا فيها رائحة الشتاء المقبـل. حملت معها ذرات من الرمال. فأحس بها مصطفى فوق خده الناعم.

كان مصطفى سعيدا.

أحس بدفء لذيذ حول القلب، وبرغبة في أن يحكـي وينصت له الكل. ارتعش لسانه. غاص في بئر فمه، لم يقدر على حمل شلال العواطف الراعشة بداخله، عجب مصطفى،

بحث عن بداية يومه في ذهنه فوجدها بعيدة، لم يجد بداخلـه أثرا لرهبة أو خوف، كاد يقول لزميله أنه سعيد، وإن كان لا يدري لم ؟.

لهم زميل طويل اللسان. لا ينجو أحد من كلماته، وله قدرة فريدة على التقليد، توقف، أجبرهم جميعا على الوقوف، بدأ يتحدث.

- أول ما نوصل المعسكر دلوقت.

الصمت مؤكد، فهم يسمعون تردد أنفاسهم:

- الشاويش عبد ا  يقف.

يقلد حركاته وكلماته، ينتقل إلى النقيب فتحي أركـان حرب المعسكر، قائد السرية، القائد وهو في تقليده، ينتقل من الصوت إلى حركة، إنهم يشكلون دائرة حوله، يقتربون منه، يضيقون من عيونهم؛ لكي يشاهدونه، رغم الظلام.

الليل يخبر عن آخره الآن، وقمـر العشـرة الأيـام الأولى من رمضان يرتفع سـابحا فـوق صـفحة السـماء. وبجواره نجمة أو نجمتان، ظهرت أجزاء منهما. مصـطفى وزملاؤه يسيرون، وأثناء السير يتوقفون، يجلسون، الحـديث

يتشعب كحارات قرية مصطفى، وحملت نسمة هـواء ليليـة رطبة، ضحكات وكلمات الرجال الذين يسيرون ببطء.

انطفأت الكلمات، وأتى الصمت سريعا. وأطل كـل منهم داخل نفسه، نشط ذهن مصطفى، بدأ يسـتعيد صـورا شاهدها في سفره الطويل. كانت أشياء بسيطة وعادية. وجه فتاة صغيرة. فيه كل جمال العالم، لوح له من بعيد، من وسط أطار نافذة مفتوحة، والقطار يجري به. أم تجلس على مقعـد في محطة قويسنا، يبدو أنها تنتظر القطـار الـذاهب إلـى الإسكندرية.

تضع طفلها على صدرها. الطفل مستكن لحلمة الثدي بين شفتيه. فزع الطفل من صوت القطار فـأغمض عينيـه. الهواء المشبع برائحة الخضرة والمـاء والأرض المرويـة، يحمل له كلمات وداع المسـافرين، علـى المحطـات، فـي اللحظات الأخيرة وجه فتاة فاتنة، يبدو دائرة من النور فـوق المقعد المواجه له. ركبت من طنطا ونزل هو وتركهـا فـي بنها.

إن هدوءا يترقرق في صدر مصطفى يبدو ممتزجـا بدفء إنساني فرح.

اكتشف أنه تأخر عن زملائه، فأسرع في سيره كـي يلحق بهم.

# [٥]

# القلب يدمع قبل العين أحيانا.

# أحاديث ومشاعر أصدقاء الغزالي ليلا..

والليل، الليل الشامل، المساء يصعد إلى السماء. تشعر به واضحا، ولكنك لا تستطيع أن تراه أبدا. يأتي الأصيل الرمضاني المستطيل الوجه. أخيرا يؤذن المغرب، يجري الغزالي إلى البيت. ويكون ضوء النهار كما هو يمنح المرئيات وجودا منفردا. لا يبقى الغزالي في البيت سوى وقت الإفطار. يشرب الدور الأول من الشاي، آخر شفطة من الشاي تصل إلى فمه وهو واقف. يشاهد من خلاف زجاج الكوب المغبش ببقايا الشاي، مصطفى حبيب الفؤاد، وأمه ونورا، يضع الكوب، يجري، فيصطدم بالطبلية.

هذا المساء. شعر بحرج. سمع صوت الأطفال وهم يلعبون في الحارة. نداءات يطلقها زملاؤه يعرفها الغزالي جيدا. مال على نورا اقترب منها، ووضع فمه على أذنها. قال

لها: إنه يريد أن يذهب لزملائه، لم ترد عليه بنفس الهمـس. أشارت ناحية الحارة، انكمش داخل جلده عندما سمع صوتها عاليا:

- (الباب يعدي جمل).

تحرك بهدوء، متحاشيا نظرات أمـه. علـى عتبـة الباب، وضع ذيل جلبابه بين أسنانه، وانطلق يجري، سـمع صفارة وتصفيق يد، فرد عليهما بالمثل.

ليل رمضاني. ومشى بأفراح جدباء، بجوار ما يرويه الآباء والأجداد. عن رمضان الزمان القديم. في الباحة التقى بالأطفال. بدا الغزالي سعيدا ومهموما في وقت واحد. علـى لسانه تزدحم الكلمات. وفي الذهن صور وعوالم ضبابية. آن الأوان له، أن يتكلم، في الأيام السابقة، كان يستمع لكل مـا يقال، اليوم تغير الحال. سافر مصطفى إلى الميدان وإن كان سفره عاديا. لقد سمع الغزالي من قبل، كثيرا من الحكايـات عن السفر؛ لحظة الوداع، السيارات الغريبة، على نوافـذها ستائر مسدلة، الدموع تجري والقلـوب والأيـادي تتعـانق، معبرة عن حنين غامض. المشهد الذي رآه الغزالي في بيتهم وقت العصاري كان صامتا. الكلمات قيلـت بسـرعة، لـم

يفهمها. اندس بين الأقدام، وأطل بوجهه خارج البيت. الحارة كانت خالية. لا سيارة ولا مودعين ولا أبواب مفتوحـة ولا حقائب كبيرة مربوطة من يدها بأوراق مكتوب عليها بلغـات أجنبية.

اتجه الأطفال إلى مصطبة صغيرة مهجورة، جلسوا. لم يستطع الغزالي أن يقاوم رغبة في الكلام.

- مصطفى – اندفع قائلا – راح الحـرب. صـوته كان رفيعا كورقة السيجارة، خفوته لم يناسب معاني الكلمات. نظروا إليه، بدا في جلسته أصغر كثيرا مما قال. كان يرتدي جلبابا مقلما بالأزرق والأخضر والأحمر. على الرأس طاقية من نفس القماش، الفارق الوحيد أن خطوط الجلباب بالطول. تبدأ من صدره هابطة نحـو الأرض. الطاقيـة خطوطهـا دائرية. تلتف حول الرأس بالعرض، الغزالي دقيق الأطراف. ضئيل الحجم. كانوا يسمونه (الولد بليه)، لولا تدخل أمه فـي الأمر خوفا من أن يلتصق به ذلك اللقب بعد ذلك.

أكبرهم سنا ولد اسمه بدر، يعرف ما لا يعرفه أحد. يشرح لهم كل أمور الحياة الصعبة والمعقدة وهي كثيرة. بدر

في السنة السادسة الابتدائية، تعدى العاشرة بسنتين ويفصل بينه وبين الغزالي، أربع سنوات من العمر.

كان أول المتحدثين:

- لا يا عبيط.

صاح الغزالي:

- دا أخويا وأنا اللي موصله.

مصطفى راح العسكرية، مش الحرب.

غمس واحد نفسه بينهم:

- العسكرية هيه الحرب.

أشار لهم بدر أن يسكتوا.

- تفرق كتير خالص.

أصبح صوت بدر أكثر هدوءا. إنه يجرب فيهم كل مفاهيمه ومعلوماته عن الحرب والقتال. والد بدر مأذون البلد، يذهب كل صباح إلى إيتاي البارود، وعند عودته وقت الأصيل. يشاهد الأطفال، تحت إبطه جريدة مطبقة، وعليها آثار عرق يده وبقع ونقط حبر. يؤكد لهم بدر كل مساء أنه يقرأ الجريدة في الليل، يفليها:

- هكذا – يؤكد لهم – من طقطق لسلامو عليكو.

- الحرب يا جماعة.

يقول لهم بدر: إن آخر حرب مرت بنا، كانت من ست سنوات. أغلبهم لم يكن قد ولد يومها. بدر كان في السنة الأولى. بمدرسة عصران عبد الكريم. ويومها تعطلت المدارس. وكانت ضد إسرائيل.

- إسرائيل.

ردد أكثر من صوت الاسم. توقف بدر، لامست عيناه وجوههم، فردا فردا.

- دي اللي سرقت مننا فلسطين.

حركوا رءوسهم في حيرة قال لهم: إنه كان يود أن يعرفهم مكان فلسطين. فلقد درسها في السنة الماضية. ولكن لا توجد خريطة.

- بكره تكبروا وتعرفوا.

الغيظ يأكل قلب الغزالي، ضاعت الفرصة. وها هو بدر يتكلم بدون توقف. قاطعه صوت:

- هو فيه بعد بلادنا بلاد؟

- بتقول إيه؟

استراح بدر في جلسته. رده كان على شكل حـديث عن مصر والعالم المحيط بها. بدر ينطق الكلمـات بسـرعة كما قيلت له في المدرسة تقريبا. صوته يكتسـب فـي آذان المحيطين به معاني أخرى تسلمهم إلى حيرات جديدة.

سأله الغزالي:

- ومصطفى خدوه ليه؟

السؤال كان مفاجئا:

- شوف يا سيدي.

بعدها لم ينطق بدر ولا كلمة واحدة. تلعـثم وأخـذ يكرر الكلمتين أكثر من مرة. حاشرا بينهما كلمـات مثـل. أصل، إنما، يعني..

أكمل الغزالي:

- مصطفى ضابط كبير ورئيس الجيش كله.

انتفض بدر:

- كله إلا دي.

- وا   مصطفى ضابط كبير:

- إيه؟

- سترته القديمة في البيت، متعلقة علـى الحمالـة، وفيها شريطين سمر. أمي قالت دي علامة الضباط.

صوت بدر يعلو:

- مصطفى أومباشي.

رفع بدر يده مشيرا بأصبعين منها ليدل علـى عـدد الشرائط ونوع الرتبة. احتار الغزالي. ولكنه قال:

- من فيكم له أخ في الحرب؟

صحح بدر:

- العسكرية مش الحرب.

- الحرب.

العسكرية.

مد بدر يـده، فـأجلس الغزالـي. شـعر الغزالـي بالارتباك. العيون ترشه بنظرات لم يفهم معناها. رفع يـده. وكبس بها الطاقية فوق رأسه التي بدت ملامحها واضـحة. الرأس مستطيلة وليست دائرية، وكثيرا ما أضحكت زمـلاءه منه. الكبار يقولون إن السبب في ذلك أن الداية سحبته مـن رأسه وليس من قدميه. فاستطال شكله.

- الحرب لو....

بدر يكمل حديثه: لو قامت الحرب، بلـدنا هـي أول البلاد التي ستعرف، طبعا لا تعرفون السبب. سأقول لكم: في البلدة القريبة منا، ناحية الشرق. يوجد مطـار كبيـر، فيـه طائرات ومدافع وعساكر وجيش بأكمله. ما إن تقوم الحرب، حتى تنطلق الطائرات تعبر سماء البلد وهي ذاهبة تضـرب إسرائيل. وفي هذه الحالة، من الواجب علـيهم أن يصـعدوا فوق بيوتهم لكي يحيوها، وهي في طريق العودة، قد تصـل إلى الآذان، أصوات احتكاك عجلاتها بأرض المطـار عنـد الهبوط فيه، وقد يضرب المطار فتهز أصوات الانفجـارات البيوت وربما تسببت في تصدع المباني وانهيار القديم منها.

- أنتم لسه صغار. في الحرب اللي فاتت....

الأطفال يشربون كلماته. يغمسون آذانهم في حروفها وهو يحكي، شاهد أهل البلد مرة جسما صغيرا. يندفع نحـو الأرض، راسما خطًا في الأفق على شكل نصف دائرة مـن الدخان الأسود، يبدأ الخط في الاتساع، ليتحول إلى مسـاحة واسعة من الدخان. الكل خمن، والكل تحدث. والكل قال: دا صاروخ. قنبلة طيارة. وقعت الطائرة شرقي البلـد. اعتقـد الناس أنها سقطت في النيل. بعد أن جروا نحوها. اكتشفوا أن

البصر خداع وأنها نائمة فوق الشط الشرقي. من يومها والكل يعرف حكاية المطار الكبير المقام وسط الحقول.

انطفأت الكلمات على ألسنتهم، والصمت غريب على عالمهم. بدءوا حديثا عن رمضان. ولكنه لم يستمر كثيرا قال واحد:

- نتقابل في السحور قدام أبو نشابة.

الوقت متأخر، عرفوا ذلك من الشوارع والحـارات التي أصبحت خالية من الناس. وأبواب الدكاكين التي لا يقف عليها أحد. الشوارع مضاءة. أول رمضان يأتي بعد النـور. تفرقوا، في الطريق شعر الغزالي بحنين حار لمصطفى، في الأماسي. كان مصطفى يمر عليه، يأخذه، يعطيه يده اليمنى. فتشتبك اليدان. يبطئ مصطفى من سيره. في صـمت كانـا يقطعان الطريق إلى المنزل. الغزالي يسير بمفـرده. طـوح يديه. فبدا خياله أمامه مضحكا. شبكهما خاف ظهره. أبطـأ سيره. نزل إلى قاع الشارع وسار فيه. بـاب بيـتهم كـان مفتوحا. تطل من داخله ظلال الأشياء. على لسـان الضـوء المنبعث من اللمبة الصفيح. أتت الكهرباء ولكنها خاصـمت منزلهم. العين بصيرة واليد قصيرة. كانت أمه جالسـة مـع

أخته. بدا في وقفته على العتبة، ضئيلا، خبطت أمـه علـى صدرها، بهتت أخته. ظل واقفا في مكانه، طفحت عيني أمه نورا ولمعانا:

- الخالق الناطق مصطفى في وقفته.

جرى الغزالي إلى أمه، رمى نفسه في حضنها الذي كان دافئا ولينا في الزمان القديم. مدت يـدها. رفعـت بهـا وجهه إليها. شعرت أن مصطفى ينظر إليها من خلال عيني الغزالي ينبض القلب نبضة واهنة. العين حفرة بلا رمـوش. جف منها ماء الحياة. ولم تعد تسعفها بقطرات الدمع الدافئة. من قبل كان المرحوم والدهم يشربها بنظراته من خلال عيني مصطفى. الآن يلمس مصطفى قلبها المتعب من تحت رموش الغزالي. وضعت رأسه على صدرها. نورا تخفي ارتباكهـا، تحاول أن تبدو مشغولة. رفع الغزالي رأسه، نظر نحو أمه:

- مصطفى جاي امتى؟

عدت على أصابعها:

- بعد تسع تيام.

- على فكرة. دا ما رحش الحرب.

- مين اللي قال لك؟

- الناس كلهم، أصل الحرب غير العسكرية.

حملته بيدها، أجلسته على الأرض وقامت، بلع كلماته وحبسها في صدره، أغضبه أنها لم تستمع لكـل مـا قالـه. اقتربت نورا منه، كان يطل من داخل طفولتها العابثة أنثـى. توجد أشياء كثيرة لا يفهمها الغزالي. اقترب منهـا، أمسـك بيدها، ودخلا المندرة. على الحصـيرة المتآكلـة، تربعـت. وضع رأسه على فخذها. وبدأ يحكي، قبل الحديث. أكد لهـا أن ما سيقوله سمعه الليلة من أكابر البلد. ابتسـمت قبـل أن تسأله. وكيف جلس معهم؟ رفض الإجابـة علـى سـؤالها، وعندما قال لها إن الحديث كله كان عن مصطفى، ارتخـت رموش العين المشرعة. وتحولت خطوط الغبـار المسـتقيمة على الوجه الجميل، إلى أنصاف دوائر تهتز مع الكلمات.

الغزالي يحكي، ونورا تجوس بيـدها علـى جسـمه الصغير، صوته يرتفع، ويستخدم يده في الحـديث كثيـرا، ترتفع رأسه أحيانا، يقرب فمه من أذنها، ليقول لها سرا ما.

في منتصف حكايته. غلبه النوم. توقفت الكلمات على لسانه. وأغمض عينيه. في وسط الدار. كانت أمهـم تنـزل الحطب وتحضر العجين وتفـرش الأجولـة القديمـة علـى

الأرض. ارتفع صوتها ينادي نـورا. رفعـت نـورا رأس الغزالي، شدت ملابس قديمة من فـوق الحمالـة، كورتهـا ووضعتها تحت رأسه، أغلقت باب الدار. ووضـعت اللمبـة فوق رأسها، واتجهت داخل البيت. اقتربت من أمها. كانـت تطل من فوهة الفرن، ألسنة لهب تتراقص. ومن الخارج كان يأتي صوت يتلو آيات القرآن. وصل الصوت. ولكن نسمات الخريف هبت فبعثرت بقية الآيات.

# [٦]

# ثبت أن دعاء الأم حجاب.. فصل فيما جرى لمصطفى بعد وصوله إلى المعسكر بالسلامة.

خطر، منطقة مناورات، ممنوع الدخول، أبرز تحقيق شخصيتك، ممنوع التصوير، منطقة عسكرية، احذر، حقـل ألغام، قف للتفتيش، المناطق المحاطة بالأسـلاك الشـائكة، دوريات الشرطة العسكرية، قاعات الطعام الواسـعة. خيـام السكنى، مكاتب الاسـتعلامات. سـيارات الإمـداد بالمـاء والوقود.

في البداية، فوجئت العين التي ألفت الظـلام. بنـور بطارية يسلط عليها. رفع يديه اليسرى، غطى بهـا العـين. وباليد اليمنى أخرج أوراقه. أمر الاستدعاء. كعب اسـتمارة السفر، بطاقة شخصية. كشف مهمات:

- اتفضل يا دفعة.

بعد نزولهم من القطار الحربي. ساروا على الأقدام. في الزمان القديم كانت تنتظرهم سـيارات، خـلال السـير. ذكرى الأيام البعيدة وسادة يستريح فوقها القلب. العين نصف مغمضة، والقدم تضرب على الرمال بهدوء. أمامه مسـاحة واسعة من الظلام. المسافة طويلة. لابد من الوصول. الخيام والجبال. والمنشآت العسكرية حولهم، أشكال مبهمة، تبدو في الليل، أشباحا غير محددة الملامح. السجائر تدور مع الأيدي راسمة نصف دائرة. تحدثوا عن المبيت في المعسكر، طابور التعيين وقت السحور في الليالي الشتوية الباردة. نوبتجيـات الخدمة.

أول الأصوات كانت خافتة:

- بكره اليوم الأول.

أكمل آخر:

- كلها تلات تيام.

نظر كل واحد منهم لجاره. في الظلام يبدو لمعـان العيون واضحا. ارتفعت الأيـادي تربـت علـى الظهـور. واقترب شاب من آخر. وخدش الصمت صوتٌ يقول:

- وا زمان.

بعد ثماني سنوات سرحت من الخدمة. مـن عشـرة أشهر. وصل الأمر إلى الوحدة ذات مساء بسـيطا وسـهلا وواضحا.

كان في الأمر كلمة تقول: "تقرر تسريح المحـاربين القدماء من الخدمة" أحسست بالغضب مـن كلمـة القـدماء. سنوات عمري لم تتعد الثامنة والعشرين، ورغم هذا أنبتـت كلمة القديم، إحساسا بالكهولة والعجز قبـل الأوان. لحظـة تسريحي من الخدمة. فتشت بداخلي عن إحساس مـا فـرح، دهشة، كان بالداخل هدوء وراحة لا طعم لهما. فـي الأيـام الأخيرة من سنة ١٩٦٥ سافرت إلى الإسكندرية، وبعد رحلة طويلة عدت إلى بلدتي. الاسم والرسم والبيانـات والملامـح هي نفسها. الدم واللحم والأعصاب ونظرات العيون تغيـرت كثيرا.

وصلنا إلى الوحدة. الظلام ستارة تحول دون الرؤية. على البوابة، جندي حراسة في يده سيجارة، ارتفع ضوءها، فأدركنا أن يده تقترب بها من فمه. أصحبنا أمامـه. سـحب نفسا طويلاً، فانبثقت كرة من الضوء الأحمر الخافت، تعرت تحتها الوجوه والعيون والملامـح فعرفنـا بعضـنا، هـوت

السيجارة بجانبه، فتاهت الملامح مرة أخرى، جعلته معطـرا برائحة إنسانية رغم وحشة المكان، قمنا بجملـة إجـراءات، مكاتب التسجيل، معسكر الاستقبال، الاسم والعنوان، أقـرب الأقارب، وزعوا علينا استمارات بيضاء، نظرنا فيها، حاولنا قراءتها. قيل لنا، المطلوب أن يدون كل منا اسم من تصرف له مكافأة المستحقات المالية في حالة الاستشـهاد، ومكتـب البريد، أو البنك الذي تحول عليه المرتبات أثناء العمليـات، ضحك واحد منا:

- قال الاستشهاد قال.

سبق أن دونا نفس البيانات من قبل. فـي النهـارات وخلال الليالي، ووقت الغروب وكتبناها علـى مكاتـب، أو أسندنا الورق على الحيطان، أو فوق أرجلنا في هذه المـرة ران علينا صمت ونحن نكتب، لم يكن هناك سوى همهمة من يحدثون أنفسهم بأحرف من كلمات. وأجزاء مـن جمـل لا يفهمها سوى صاحبها وحده دون سواه. أحسست بالضـهرية وأمي. رأيت الغزالي واضحا. نظر إلي بعينيه الرائعتين من خلال أسطر الاستمارة. النظرة كانت طويلة. أحببتـه لحـد العشق. مددت يدي لأكتب بقلم كوبيا بللته بفمي اسـمها فـي

خانة درجة القرابة. دونت أمي، شطبتها وكتبت الكلمة التـي يحبها الغزالي: والدتي، ارتجف بداخلي شغف رقراق، وأنـا أدون بوسطة الضهرية التابعـة لمكتـب بريـد الضـهرية، محافظة البحيرة.

الكل يكتب، يحول ما بداخله إلى خطوط متعرجـة، أودعوا فيها ذوب قلوبهم، نظرت في الورقة، كان الخط مائلا متعرجا، واضحا في أماكن، باهتا في أخرى. استغرقت فـي النظر إليه. بدت خطوطه كقنوات حقلنا والجسر المحيط بـه. رحت أسير بأصابعي على الخطوط، ها هـو حقلـي، أرض الجيران، الساقية، الترعة، مساحة البرسيم، الأرض السوداء التي بذرت فيها القمح قبل استدعائي بثلاثـة أيـام. سـلمت الورقة. وخرجت إلى عنبر آخر.

الليل يتقدم ولكن لا يزال أمامنا عمل كثير:

- فرش متاع.

حملت إلي الكلمة رائحـة الأيـام السـابقة. فتحـت حقيبتي، ووضعت مهماتي على الأرض، الصف يبدو طويلا والضابط يتوقف كثيرا أمام كل فرد ليراجـع مهماتـه. فـي اللحظة الأولى أخذنا الأمر بجدية. بعد قليل أصبحنا جنـودا

قدامى بالفعل. بدأ كل منا يسأل الواقف بجـوارە، أن يسـلفه الناقص من مهماته. حتى يمر دوره في التفتيش، ثم يردهـا إليه. تنبه الضابط للمسألة. كشف أمرنـا غمـزات العيـون والبسمات والضحكات. أمسك بزميل يحادث آخر بالإشـارة، يطلب منه ملعقة. لم يكن من السهل النطق بالطلـب؛ ولـذا حرك يديه ممثلا له. لكي يفهم طلبه. وبنفس الطريقة تصرف معنا الضابط. بدأ التفتيش من أول الصف. الضابط أمـامي رغم وقوفي في ذيل الصف. سـؤاله الأول كـان القـرص المعدني. كان معي. أخذه، قرأ بياناتـه بصـوت مسـموع: الاسم، الرقم العسكري، تاريخ التجنيد، تاريخ الميلاد، فصيلة الدم. كنت أرد بعد كل بيان، مؤكدا صحته، أعطاه لي، لففته في يدي، ومددتها لجيبي، نهرني بصوت عال. وبلهجة جافة:

- القرص يوضع هنا.

اقترب مني، أمسك به. حول السلسلة المعلق فيهـا، إلى دائرة صغيرة بين يديه رفعها، وضـع السلسـة حـول رأسي. وتركها تهبط وتلتف حول رقبتي. أحسست أن الجـو بارد، عندما انزلق القرص فوق صـدري. تحـت ملابسـي الداخلية، مسترخيا في مكانه، بين شعريات صدري الغزيرة.

- القرص لا يخلـع مهمـا كانـت الأسـباب. لـو استشهدت هوه الدليل الوحيد لمعرفة شخصيتك.

وجه الضابط قريب من عيني، ارتعش شيء ما فـي حدقتي عينيه. وهو يستدير رفعت يدي:

- حاضر يا أفندم.

ذهبنا إلى المخزن. استكملنا الناقص مـن مهامتنـا. وأتى منتصف الليل سريعا. أعطوني بطـانيتين وزمزميـة. وخوزة وجربندينة، وغيارا داخليا، وأفرولا جديدا، ورباطـا ميدانيا معه بعض الإسعافات الأولية. وقفنا للتتمـيم علينـا. صمتنا، كان كل منا يلتقي بذلك الحضور المفعم بداخله الذي لا تعبر عنه الكلمات، تصلني بعض الأصوات خاليـة مـن حماس أول الليل. كنا نقف في أرض الطابور. الضابط ينادي ومن يسمع اسمه يرد عليه. يحمل مهماته. بعـد أن يعـرف فصيلته وحكمداره. يتحرك نحو الخيام، يتحدد وجوده عنـدما يغرق في بحار الأضواء الخافتة.

يبدو ظله مستطيلا ببطء ووراءه. يخرج من العتمـة بالتدريج. القدمان في حذاء عسكري لم تألفاه بعـد. أفـرول واسع تتوه بداخله ملامح الجسم، يداه ترتفعان كـي تسـندان

مخلة مهماته الذي يضعها فوق كتفه، الرأس والطاقية تاهـت بجوار المخلة. الخيمة المخصصة له. يعرفها؛ ولهـذا فهـو يسير بلا دليل.

الضابط ما زال ينـادي. طـال الوقـوف فأمرنـا بالجلوس. الصف يتناقص والأصوات التي ترد عليه، تختلف من فرد لآخر.

الجالس بجواري زحزح مخلته على الأرض، مقتربا مني، فشممت رائحة الرمل والتراب، لامست مخلته مخلتي، أصبح بجواري، مد قدمه، خبط بها قدمي، تصورت أن ذلك غير مقصود، كنت أتابع الأسماء، منتظرا سماع اسمي، مـد جاري يده. لكزني بها. نظرتي إليه كانت مزيجا من الغضب الهادئ وحب الاستطلاع. اقترب مني أكثر، همس لي:

- دي الحكاية.

لم تصلني جملته كلها.

- بتقول إيه؟

اقترب هذه المرة أكثر، كادت شفتاه أن تلامسا أذني، عندما نطق كلماته الأربع أحسست بدفء أنفاسـه ورطوبـة بخار فمه واضحة على جلد أذني:

- دي الحكاية باين عليها جد.

لم أرد عليه. اقترب أكثر، صنع مـن يديـه بوقـا، وصلني همسه:

- الاستدعاء مختلف عن المرة السابقة.

وضع يديه على كتفي، وأدار وجهي ناحيته، فعرفني:

- مصطفى؟

- نعم.

- مالك؟

قبل أن أفتح فمي لكي أرد عليـه، سـمعت اسـمي مسبوقا برتبتي:

- أفندم.

رأسي تحت المخلة، نظراتي تصافح وجوه الجالسين في انتظار دورهم. لمعان العيون يبدو خطا طويلا بلا نهاية. رآني زميل قديم، أمسكني من قدمي، توقفت ونظرت إليـه. فقال لي ضاحكا:

- مبروك عليك خيمة الصف ضباط.

في الخيمة وضعت مهماتي، لم أنم، لكل مكان جديد دهشة وفرحة، ورائحة خاصة، ذهبت إلى الفضـاء الواسـع

أمام خيام الإدارة؛ حيث كنا نجلس طوال الليل نتكلم. وجدت زملائي، تمكنت من رؤية وجوههم رغـم خفـوت الضـوء. اقترب موعد السحور. النوم ثم الاستيقاظ متعبا، يبدو أن الكل فضل السهر مثلي. الملابس جديدة خشنة، والوجوه متجهمة. الكلمات الخارجة من الأفواه قاسية، كاكية اللون، والإحساس والمعنى، تكلموا. الحديث يفتح في القلـوب نبعـا رقراقـا. وملامح الوجوه تسيل ليونة. الكلمات ترق، تنبـت بـداخلها قلوبا تنبض، تصلها بالآذان أوردة بداخلها دم حار ملتهـب، هبت نسمة هواء باردة. فتمدد بداخلي حنين للبيت وللنوم فوق مراتب وتحت أغطية ثقيلة.

كان الضابط قد انتهى من التتميم علينا. عاد إلى خيام الإدارة. بين يديه أوراق ودفاتر وسجلات، وجدنا فابتسـمت ملامح وجهه:

- أهلا بالزملاء.

وقفنا، غمغمت الأفواه، اقترب منه واحد منا:

- كل مرة، كنت بتقول أهلا بالضيوف.

كان قد تعدانا في سيره، توقف واستدار إلينا:

- وهيه تفرق؟

- كتير.

قال الضابط وهو يتجه ناحية الخيام:

- ضيف، لما تحضر يوم، وزميل لو طالت الإقامة.

على باب الخيمة، خبط الضابط حذاءه الضخم مرات نظر إلينا:

- أتمنى لكم إقامة سعيدة معانا.

الجلسة الآن على شكل دائرة. اقتربنا مـن بعضـنا. دارت في المحاجر حبات عيون أذبلتها الرغبة المؤجلة فـي النوم. مر علينا جندي قديم، نادينا عليه. اقترب منا، فشـممنا رائحة النوم في ملامحه، عرفنـا، فتحـول إلـى ذراعـين مفتوحتين لنا. سألناه:

- إيه الحكاية؟

- حكاية إيه؟

قاطعنا:

- لا..

جلس بيننا على الرمل. كانت في يده قروانة وكـوب للبلاستيك، ويطل من جيب أفروله نصف رغيف، وضـعهم بجواره:

- عايزين نفهم.

استراح الجندي القديم في جلسـته، وبـدأ حديثـه، أنصتنا. الكلمات تخرج من فمه على شكل أسئلة، لـم تكـن شرحا.

- دلوقت إحنا إمته؟

عشنا الأيام القديمة:

- العشرة الأولى من أكتوبر.

أكملت:

- والعشرة الأولى من رمضان.

رفع الجندي القديم يده:

- وأكتوبر بداية فصل إيه؟

جاء الرد على أكثر من لسان:

- الخريف.

تمهل في طرح سؤاله الجديد، دار بعينه علينا فـردا فردا، تحركت شفتاه ببطء.

- نسيتم مناورة الخريف. لازم تشتركوا فيها؛ لأنهـا أحسن من أي تدريب حتى ولو كان بالذخيرة الحية.

الرءوس تقترب. الأيادي التي كانت متجهة نحو الأفواه. وبين أصابعها سجائر توقفت في منتصف المسافة، بدءوا في استيعاب ما قاله.

أشار الجندي القديم إلى رأسه:

- هنا فيه مخ.

لوح نحوهم:

- المدنية أكلت العسكرية اللي فيكم..

ضحكنا وقلت:

- دي الحرب المرة دي.

قال الزميل القديم:

- على الأقل كانوا الضباط عرفوا.

ظهر على الوجوه اقتناع بحديثه. سألهم:

- طيب النهارده إيه؟

- أول ساعة من الخميس ٤ أكتوبر. حا افكركم مع أول ضوء من يوم السبت الجاي. حنبتدي المناورة.

من داخل المعسكر، لامس آذانهم صوت البروجي. خرج من صمت الليل خافتا؟ غريبا على الآذان. بدأ يعلو. رقصت أحرف الكلمات على شفاهم. بدأ بعضهم في الوقوف.

البروجي يعزف نوبة جمع لطابور التعيين. ها هـو وقـت السحور. قاموا، اتجه كل منهم إلى خيمته. أخرج منها أدوات الطعام التي لم تستعمل بعد. اتجه مصطفى ناحيـة المطـبخ الميداني الصغير. شم رائحة رمل. لامست وجهـه بعـض حباته. نظر أمامه، فشاهد سحابة من الغبار. اقتـرب منـه زميل آخر نظر نحوه. من خلال حبات الرمـل. وصـوت الأقدام. ونداءات الجنود..

سمعه يقول:

- اليوم الأول بيكون صعب. بعده تهون كل الأمور.

رفع مصطفى يده. كان يمسك بها القروانة والكوب، لوح بهما قائلا:

- دا صحيح فعلا.

أتى الفجر، له ذيل أحمر. عند خط الأفـق البعيـد. انتشر ببطء على صفحة السـماء. الـتقط نجـوم السـماء. المتناثرة على سطح السماء. كالحب من فوق أرض الجرن. في الطابور وقف مصطفى ينتظر دوره؛ كي يصرف تعيـين السحور.

# [٧]

# عن الرقم سبعة. الحرب. الطائرة. شجرة التوت ثم السبب في وقوع الغزالي على الأرض فجأة

قريتنا تكره الأرقام الزوجية، لا أحد يدري السبب في ذلك، الكبار يقولون إنها دليل شؤم، الأرقام الفردية ذكرها يسيل على ملامح الوجوه ليونة، ويمنح القلوب راحة. عندما يبدءون في العد. يقولون: "ا واحد" يخشن الصوت عندما يكملون "مالوش تاني"، تعود الراحة إلى الصوت والوجه وهم يهمسون: "الحبيب ثالث الأنبية".

الرقم سبعة مرسوم فوق القلب. وفي حياتهم البسيطة. تكون الأشياء جميلة لارتباطها بذلك الرقم. يعدون الأيام بالأسبوع. ومولد سيدي الأربعين يكون أسبوعا. والسوق الكبير يقام في البلد يوم السبت من كل أسبوع. عند سفر أحد أبناء البلد. ينشغل الفكر والبال عليه. الحنين لا يكوي النفوس

إلا في اليوم السابع. بعد أن تستدير الليالي والنهارات مكونة سبعة أيام.

- زي النهادرة كان سفره.

في اليوم السابع فقط، تدرك الضـهرية أن أبناءهـا سافروا وأنهم غابوا. وفي اليوم السابع تدرك أنها تحب كـل ما فيهم حتى الشقاوة واللعب والجري.

- الغريب طالت غربته.

في اليوم الثامن تبدأ الضهرية في الحـديث عـنهم. أنهار الكلمات التي تقال تنبع من بحيرة واحدة. وكل الجمـل تبدأ بهذه الكلمة:

- يا ترى.

ينطقها الأفندية "يا هل ترى". والمعنى واحد على كل لسان. طبلية الإفطار والاستيقاظ مـن النـوم علـى دقـات السحور، أوقات ينبت فيها أبناء البلد من لحظات الانتظار.

- يا ترى بيفطروا فين دلوقت؟

التساؤلات الخارجة من أفواه تمضغ الطعام بـبطء. وتكون من النساء عادة. أما الرجال فيتصنعون الجد:

- زمانهم في وحداتهم زي زمايلهم.

ويرد طفل صغير:

- يا بختهم.

يظهر الرجال عدم المبالاة، يقفون في وجه الضعف النسائي الجارف، ولكن شيئا ما بداخلهم يخونهم، الدموع تدق جدار العين. الرجل رجل. والجلسة حول الطبلية توشك أن تنتهي. وبعدها يخرج إلى الجامع. أو الدكان وهناك يفعل ما يحلو له.

مساء الثلاثاء، سافر مصطفى. مر الأربعاء والخميس والجمعة. أدركت أمه أنها أصبحت رجل البيت من بعده. فقررت القيام بالعمل الذي كان يقوم به. ذهبت إلى الجمعية، ختمها كان في جيبها، أخذوه منها. غمسوه في الختامة، وختموا به أوراقا كثيرة وأعطوها الكيماوي، ظلت في الحقل طول النهار. قالت نورا مساء اليوم الثاني لرحيل مصطفى الغزالي إنها عندما ذهبت لأمها في الحقل. وجدتها تربط وسطها وتلف رأسها بالطرحة، وتمسك الفأس وتعمل. من بعيد خيل لها، أن رجلا يلبس جلباب امرأة يعمل في حقلهم. اقتربت منها فاكتشفت أنها أمها.

في الصباح، فتح الغزالي عينيه، فوجد خطا من ضوء الشمس، يبدأ من رأسه، ويمتد مع جسمه وينكسر قرب الحائط. الوقت هو الضحى، ومن قبل حاولت نورا أن توقظه مبكرا مثل كل يوم، أتاه صوتها مختلطا بصياح الديكة:

- حا تتأخر عن المدرسة.

قال لها، وهو تحت الغطاء: إن جميع المدارس في القطر كله. قد أغلقت ابتداء من اليوم بسبب الحرب. هزته نورا:

- وطبعا قلت بركة يا جامع.

أغمض عينيه ولم يرد عليها، وإن كانت كلماتها قد ذكرته بحكاية الرجل الذي لم يذهب للصلاة أبدا طوال حياته كلها وهو لا يصلي. وذات مرة أرغموه على الذهاب للصلاة. راوغ وحاول الهروب. ولكنهم ساقوه، فوجدوا الجامع مغلقا. فهلل، ومن يومها كان المثل. تصله أصوات كل صباح، مناجاة أمه للجاموسة، اصطدام رأسها بالمدود. يتلاشى الصوت، فترة من الهدوء يتأتى بعدها صوت شرشوب اللبن واصطدامه بقاع الشالية، تتجه أخته إلى قفص الدجاج، تفتح الباب الصغير، تنطلق، ويصبح كل شبر في

البيت مباحا لها. أصوات المنازل الأخرى. نهيق حمار، نباح كلاب، صوت رجل يحدث زوجته، قبل ذهابه إلى الحقل.

قام الغزالي، دخل غرفة المعاش، أغلق الباب خلفه، تناول إفطاره وهو واقف، رمضان هو الذي منعه من الأكل في أي مكان آخر. الغزالي لا يصوم وإن كان يسـبق الكـل إلى الطبلية وقت المغرب. وقبل أن ينام يمسك نـورا مـن يديها، ويحلفها بكل الذين ماتوا وبشرف الذين لم يموتوا بعد. وبمقام سيدي صلاح أن تصحيه في السـحور، وإن كـان لا يأكل كثيرا. لقمة أو لقمتين. وينطلق بمجرد سماعه صـوت طبلة المسحراتي.

يوقفه الباب، لا يستطيع أن يفتحه، فالوقت ليلا الباب مغلق بإحكام خوفا من أولاد الحرام. يفـتح لـه مصـطفى، وينطلق كي يلحق بالمسحراتي.

كان إفطار الغزالي، من بقايا سحور الليلة السـابقة. هكذا تعود في رمضان. أكل حتى شبع، لبس الجلباب المقلـم وكبس الطاقية حول رأسه. ودس قدميه في حذاء قديم. اليوم عطلة. والغزالي يفهم المطلوب منه دونما كلمات. سـيذهب إلى الحقل. أركبته أمه على الحمار. وأعطته في يده مقـود

الجاموسة وأطلقت الماعز. سارت الحمارة، فهـي تعـرف الطريق، الحارة ثم الشارع وأخيرا إلى داير الناحية. سـمع من راديو موضوع فوق بنك بقال، أناشيد وأغـاني عاليـة انتهى إلى داير الناحية، وخلف البلد وراءه، وأصـبح علـى الطريق الذي يوصله إلى الحقل.

الأمس كان نصف يوم فقط، في طابور الفسحة أتـى الناظر بشخصه، وقف في منتصف المربع الـذي يكونونـه بوقوفهم وتحدث معهم. لم يصل صوت الناظر إلى الغزالي. شعر بالواقفين حوله يصفقون فصفق معهـم. بعـد ذهـاب الناظر. عرف من التلاميذ الكبار. أن المدرسة سـتغلق وأن الحرب قامت. تساءل:

- الحرب؟

لوح طالب بالسنة السادسة في وجهه:

- دي قايمة من يوم السبت.

حسب الغزالي الأيام في ذهنه:

- يعني من أول امبارح.

كاد التلميذ الكبير أن يضربه:

- شاطر، عرفتها لوحدك.

حمل كيس كتبه وخرج من الفصل. في الفناء كـان الطلبة قد تحولوا إلى حلقات متناثرة يتكلمن، اتجـه ناحيـة الباب الخلفي. سار بجوار السور الخارجي. ومن فتحاته كان يرى السعاة، وهم يرفعون الدكك والكراسي. يكومونها فـي أركان الفصول. ويعلقون على جدران الفصول لافتات كبيرة، لم يميز المكتوب عليها، على باب المدرسة، شاهد الغزالـي، ضباطا وجنودا. ذكروه بالغالي مصطفى. كان الناظر معهم. الحديث بينهم يدور بصوت عال. الأيـادي تشـير والأفـواه تتحرك والملامح تضحك. وحول البـاب كانـت سـيارات عسكرية تقف. قال الأطفـال. أن المدرسـة تحولـت إلـى معسكر. وقال آخرون، بل مستشفى عسكري. طفـل أكبـر منهم سمع ما يقولون، فرماهم بالجهل، وعدم الفهم. قـال إن المدرسة أصبحت من اليوم قيادة لقوات المنطقة.

صاح الأطفال في صوت واحد:

- إيه.

- قيادا.

أعاد نطق كلمات جملته ببطء هذه المرة. وشرح لهم الحكاية. الكلمات تسقط فوق أذن الغزالي، ولكنه لا يفهمهـا.

انضم إليهم طلبة المدرسة، كونوا كتلة كبيرة، تتحرك وتتكلم وتسير وتتزاحم ببطء، المهم هو الحديث؛ ولـذا فـإن أقـدام الكبار تدوس أقدام الصغار، والأيادي في انـدفاعها خـلال الحديث ترطم وجها أو تطرف عينا. وجـد الغزالـي نفسـه خارج الدائرة. بحث عن بداية الحديث. فوجدها بعيدة، الهواء يحمل له كلمة، ويطير أخرى. حاول أن يرتب الحكاية فـي ذهنه كي يحكيها لنورا، بعد عودته إلى البيت. لم يكن ذلـك سهلا عليه. سمع كلمات عن القوات المتمركزة في المنطقة. المطار. إسعاف الجرحى، الحرب الشـعبية، الـدفاع عـن الضهرية ضد العدو. اقترب من السائر بجواره، سأله عـن يوم العودة إلى المدرسة. بدت الحقول واسعة أمام عينيه وهو يتابع زميله الذي قال له: إن المدارس لن تفتح أبوابها إلا بعد الحرب..

علق صوت طالب:

- ويا عالم بقى.

ابن الغريب كان سعيدا، قطع المسافة من المدرسـة إلى بيتهم المؤجر جريا، وقعت كتبه أكثر من مـرة، اسـمه أشرف، لا ينادونه إلا بابن الغريب. والغريب ليس اسم والده

بقدر ما هو صفته، من السويس حضروا. لم يكـن أشـرف وقت حضوره قد نط عن السادسة من عمره يومـا واحـدا. يستعد هذا العام لامتحان الابتدائية. قـال وهـو يجـري إن عودتهم قربت أكثر، التلاميذ لم يفهموا سـبب فرحـة ابـن الغريب أبدا.

في تعثر الغزالي وسط الكلمات، سقط فوق الأحرف الخارجة من فمه، لم تستقم الحكاية في ذهن نـورا. اكتفـى بالقول إن المدرسة أغلقت أبوابها نهائيا.. قالت إنها سـمعت ذلك من راديو في دكان البقالة ليلة أمس. لم يجد ما يحكيـه. فانطلق يعوم في برك أكاذيبه، قال إن الناظر أصبح ضـابطا كبيرا والتلاميذ والمدرسين جنودا. أما المدرسة، فهـي الآن معسكر، وكل هذا في انتظار الحرب التـي سـتحدث فـي الضهرية بعد أيام.

اتسعت عينا نورا دهشة. ورفضت أن تصدق. ولكن الغزالي تشبث بما قاله، وزاد عليه، قال لها: إنـه سيتسـلم بندقية في المساء. وعليه حماية حارتهم. وضـحكت عنـدما أدركت أن البندقية أطول منه. وعندما قـال لهـا: إن لـبس العسكرية، ذكره بمصطفى. هبت على ملامح وجهها ريـح

حزينة، غرقت في صمت طويل، ولم تعد تسمعه فصمت هو الآخر.

أول أيام العطلة. الحقل. والغزالي بمفرده. حضـرت بعده أمه. ثم تركته وعادت إلى البلد، كان أول ما فعلـه أن صعد فوق شجرة التوت، القائمة على رأس حقلهـم. ومـن أعلى مكان فوقها وقف ينظر في كل الاتجاهات. سمع الكثير عن مطار في البر الثاني من النهر لم ير شيئا غطى عينيـه بكفه؛ ليتمكن من الرؤية، لم تكـن أمامـه سـوى الحقـول والأشجار. نزل من فوق الشجرة وقف علـى رأس الحقـل. الغزالي بمفرده. والفرصة متاحة أمامه لكي يقلد مصطفى في كل ما يقوم به، البداية من لحظة حضوره مـن البيـت فـي الصباح. يربط البهائم في مداودها، يخلع ملابسه ويضعها في قلب جذع شجرة التوت العجوز. يحضر المنجـل ويمسـكه بيده. ينظر في عين الشمس ويرفع كفه يتلقـى بهـا ضـوء الشمس. ينزل الحقل، يسير ببطء، يتوقـف يجلـس أحيانـا محاولا رؤية شيء ما في الأرض. العودة من فـوق الحـد الذي يفصل أرض الجيـران. الحقـل والزراعـة والبهـائم والساقية. كل ذلك ملك الغزالي الآن. فكر أن يـدور حـول

الحقل من الناحية الأخرى. شعر بتعب من أثر المشي، ففك قيد الحمار، وضع فوق ظهره جوالا فارغا. قاده، وأوقفه بحذاء مدار الساقية المرتفع. لف وصعد فوق المدار. أصبح من السهل عليه أن يكرب فوق ظهره حرك قدميه. ورفع صوته ونخسه، تماما كما يفعل مصطفى. على الطريق، بدت له الحقول والترعة والأشجار. نظر إلى السماء. زرقة خريفية قريبة إلى اللون الرمادي. كانت صفحة صافية من جهة الغرب. نبت جسم لم يكن له صوت. تصوره غرابا أو حدأة، يطير فوق السحاب. اقترب الجسم وكبر. وملأ صوته الفضاء. كانت طائرة. مرت بالقرب منه، خاف على شجرتهم العجوز أن تصطدم بها في اللحظة التي سدت فيها الطائرة عين الشمس، وحجبت عنه السماء كلها. وغرق في ظلها، أصابته رعدة، قفز الحمار، سقط الغزالي بين قدميه، رأى وهو على الأرض قوائمه الأربعة. وظل ضخم يغطي الحقول من حوله. الظل يتحرك راسما هيكل طائرة على الحقول، الظل يسير ببطء، متجها ناحية البر الآخر من النهر.

وقف الغزالي، نفض جلبابه من التراب وبحث عن مداسه وتحرك نحو الحمار. أمسك مقوده ونظر ناحية

الشرق، الطائرة تقترب من الأرض. تبطئ، صوتها يخفـت. تابعها بعينيه حتى ذابت وسط الحقول والأشجار. ذهب خوفه عندما تذكر المطار الكبير.

الطائرة التي مرت لم تكن الأولى. كاد بعضـها أن يلامس أوراق شجرتهم العجـوز. شـعر الغزالـي بحنينـه لمصطفى الذي يفهم أمور العالم أكثر منه. أدرك أنه يحبهم. مصطفى وأمه ونورا، وقف فوق مدار الساقية. بـدأ ينظـر ناحية البلد بقلق. أمه لم تحضر بعد.

على البعد. عند أول الطريق. نبتت نقطـة سـوداء. كانت تتحرك ببطء عرف فيها أمه فبدت له ملامحهـا أكثـر وضوحا. الغزالي ينتظرها. وهو يعد فـي ذهنـه الكلمـات والحكايات التي سيقابلها بها. عن الطائرة والحقـل وشـجرة التوت. لن ينسى أن يؤكد لها أنه لولا وجوده لبـار الـزرع واحترق الشجر وتهدمت الساقية من الطائرات.

# ماله الدست بيغلي
# قال من كتر ناره

* مثل شعبي من زماننا *

# [٨] لوحة أخيرة..

## بدلا من الخاتمة التقليدية

### ➢ كيف دخلت كلمة طفوا النور حياة الضهرية؟

الضهرية حبيب، والحبيب بحر بلا شـاطئ آخـر. والبحر له أعماق وبه أماكن ضحلة تـرى العـين قاعهـا. الضهرية كائن آدمي. يأكل ويشرب ويحاول أن يفهم ويدرك الأمور على نحو شديد الغموض. كتلة من الناس والمبـاني والأشياء تضحك وتحزن وتستوعب ما يحدث حولهـا علـى طريقتها الخاصة.

ليلة النصف من رمضان. أتى الليل. فذابت ملامـح البلد داخل غبشة مسائه، ليالي انتصاف الأشهر لها لون معين في حياة الضهرية. بعد غبشة المساء. يخرج قمـر الليـل. قرص أحمر مستدير يرش البلد بضوء فضي لامـع. الـذين خرجوا من بيوتهم لصلاة العشاء في المسجد. شاهدوا القمـر دائرة كاملة. وغيوم الخريف الكاذبة توشح أطرافه. السـماء

لوح من الهدوء. والسحب معلقة بها وسط النجوم الشـاحبة. كأنها قناديل الليل المنسية.

الضهرية أم فتحت ذراعيها لكل الذين يعيشون بعيدا عنها. يستحمون كل مساء في مياه الغربة الباردة كالصـقيع، من اليوم الأول للحرب حضـروا. مسـحوا غـربتهم فـي حواريها وبيوتها. حكوا عيونهم في جدران بيوتها. الحـديث علي ألسنتهم له مفردات أخرى. جلسوا علـى المصـاطب، وأمام الدكاكين. قال شاب منهم: إنها أول حرب بعد دخـول النور. حواري الضهرية تنبت أطفالا صغارا يصيحون كـل مساء.

- طفوا النور.. طفوا النور.

تماما مثل البنادر البعيدة.

في الليل. ما إن يفتح باب أو تموارب نافذة أو ترفـع شراعة، حتى يخرج شريط من الضوء فتتعرى الحارة كلهـا تحته. وعلى الفور يصيح الأطفال:

- طفوا النور.. طفوا النور.

## ➢ متى دخل الشاويش فتح اللّه؟

والأومباشي عدس حياة الضهرية؟

الضهرية تسمع الآن أصواتا غريبة. سماها شـبابها المثقفون العائدون من البنادر البعيدة. بعد إغلاق المـدارس والجامعات. بأصوات الحرب. في الليل يخرج مـن الظـلام عمود من اللهب الأحمر. يدور حول نفسه. موزعا ضـوءه المخيف على جهات الكون الأربع بالتساوي. اهتزت بيـوت البلد أكثر من مرة. قيل إن طلقة مدفع فـي المطـار هـي السبب، الهزة جعلت البيوت القديمة تنذر أصحابها بأن أيامها أصبحت قليلة. في السوق شاهدوا الجنود يشترون ما يلزمهم. منظرهم محبب إلى النفوس. في القـدم حـذاء خفيـف دون جورب، السترة مفتوحة. يطل منها شعر أسود غزير. الرأس عار. وإن كانت علامات الطواقي العسكرية واضـحة فيـه. أسماء جديـدة دخلـت حيـاة النـاس، الشـاويش فـتح ا والأومباشي عدس. كل اسم ارتبط بعالم من الحكايات، بلـده وأهله وقصة حبه المحبطة، زواجه الذي لم يتم وإن كان قـد تم. فالحديث عن العروس التي انتزع مـن أحضـانها يـوم الصبحية. سعادتهم لا تقدر عندما يعثرون على واحد فـيهم

أصله فلاح يشم رائحة ابن كاره ولو كان على بعد ألف فدان أرض. يرى فيه أشياء يعرفها. تشقق اليـدين، أو ضـخامة القدمين.

عبرت داير الناحية، سيارات شرطة عسكرية، يقـال بعد أن يهدأ الغبار الناتج عنها، على سبيل التوضيح:

- إنها ذاهبة إلى الوحدات العسـكرية، أو راجعـة منها.

## ➢ ما هو سر الورقة التي أعطاهـا زمـلاء مصطفى لأمه؟

دار الأسبوع الأول. بعـد رحيـل مصـطفى، دورة كاملة. ها هو ثاني أيام الأسبوع الجديد. ولكن خبرا واحدا لم يرد عن مصطفى. في الأيام الأولى كانت أمه ترسل الغزالي إلى مكتب البوسطة. كان يجلس علـى المصـطبة المقابلـة للمكتب. وشمس الصباح خيوط مستطيلة باهتة اللون.

يظل في جلسته حتى تستدير الشمس وتصبح عمودية فوق الرأس، في هذا الوقت الطويل. يكون الساعي قد حضر فوق دراجته. حاملا معه كيس الرسائل التي تـوزع علـى

أصحابها. الغزالي يعود كما ذهب. الشيخ سليمان يمر وقـت الضحى في حواري البلد. كثرت الرسائل معه بعد الحـرب. فحمل كيسا ضخما حتى يتسع لها. تعودت نورا أن تنتظـره تسأله عيناها وملامح وجهها:

- لسه مصطفى ما كتبش لكم..

في اليوم التالي، خرج الرد من بين شفتيه بمجرد أن رآها، قبل أن تسأله. كل يوم جديد يحمل الرسائل أكثر. برز من جلبابه انتفاخان. عرف الناس أنه يضـع الرسـائل فـي جيوبه من كثرتها. عند مروره على الدار كان يرفع صوته:

- لسه مصطفى ما.

ويمضي. في اليوم الأخير مر بجوار الحـائط. لـم يرفع صوته ولم يتكلم. الغزالي لم يجد فـي نفسـه حماسـة للجلوس على المصطبة كي يشرب صـقيع الصـباح. مـد الخريف يده، نسج من ذبوله وسأمه وسادة استراحت فوقهـا القلوب المتعبة. الأم مشغولة على مصطفى. بعـد الإفطـار. عدت الأيام على أصابعها:

- هوه سافر يوم..

الدمع لا يأتي سريعا. لسع قلبها حنين جارف لا يعبر عنه إلا البكاء. إن إحساسا في دفء الـدموع يصـعد إلـى الصدر. ولكن العينين نفد دمعهما منذ زمـان بعيـد. اليـوم ينحدر نحو نهايته وسماء الغروب تبدو فـي انطفـاء وجـه الأرملة. الغزالي لم يخرج مساء مثل كـل الأماسـي. أذان العشاء. قرآن السهرة. الليل الغويط. آه من مجي ليل شتوي ممطوط. نام الغزالي. أدخل يديه في فتحتي جلبابه ولف ذيل الجلباب حول قدميه سمع أصواتا وأحاديث تخيل أنه السحور وأن نورا لم توقظه، فتح عينيه، كادت رموش العين تصطدم بجسم أسود على الحصيرة، أبعد عينيه اكتشف أنـه حـذاء ميري، صعدت نظراته، كانت للحذاء رقبة طويلة. عند آخره بنطلون كاكي. رفع رأسه كاد أن يتلامس مع السقف الأسود المشتعل بالسناج، صدر رجل يرتدي أفـرولا علـى رأسـه طاقية، لم يكن مصطفى. قام من نومه. تربع على الحصيرة، فرك عينيه بسرعة اكتشف أنهم ثلاثة، من أفـواهم خرجـت الكلمات سريعة. وبصوت عال. كانوا يودون الذهاب، علـى الحصيرة، شاهد أكواب الشاي. وأعقاب السجائر وقشر فول سوداني. الجلسة كانت طويلة إذن. جلسوا مرة أخرى أمـام

إلحاح الأم وإصرارها، اشترط واحد منهم أن يكون الجلوس لمدة ساعة فقط. صممت أن يبقوا حتـى موعـد السـحور. اعتذروا بسفرات، وراءهم مواعيد محددة:

- الظروف يا أمي.

نورا تجلس، أمامها منقد عليه براد الشـاي. زحـف الغزالي على يديه وقدميه فوق الحصيرة. مر بثلاثة ظهـور بدت عريضة. السترة الصفراء فوقها لـم تكـن نظيفـة ولا مكوية، بين السترة والسروال قايش أصفر خشـن المنظـر. مالت عليه نورا قبل أن يسأل:

- زمايل مصطفى.

غرقت عيناه في بحار الدهشة، اقترب منهـا أكثـر، أكملت:

- في مأمورية.

استوعب الغزالي الحكاية بـبطء، لمسـت نظراتـه وجوهم، على الحائط خلفهم كانت تستند ثلاث بنادق، يميـز أحدهم عن الآخرين ثلاثة أشرطة سوداء فوق كتفـه، عينـا الغزالي لم تفارق الضيوف لحظة واحدة. الكل يبحـث عـن بداية الحديث. كان خيطه قد انقطع بقيامهم، جلسوا من جديد

مما جعل العثور على أول الخيط صعبا. سألتهم أم مصطفى كيف عرفوا مصطفى، قال كل واحد منهم حكاية تعرفه على مصطفى. حكاها وسكت. أدرك الجميع أن في الفلاح شيئا ما يشم، يحس، يدرك ولا يدري أحد كيف يتم هذا.

- ربنا يطمن أمهاتكو عليكو.

الهمهمة خافتة، تخرج من بين الشفاه غير واضـحة. عثروا على بداية الحديث، وتاهت العقول بين سيل الأسـماء الغريبة. نظرات الغزالي تتحرك من وجه لآخـر. اسـتقرت فوق وجه نورا. الخدان إطار من البياض مشـرب بحمـرة خفيفة. بداخل الإطار مسحة من الجمال.

اقتربت شفتا الغزالي من إذن نورا:

- فين جواب مصطفى؟

أمسكته بيدها:

- ما بعتش.

أمه تنظر إلى الحصيرة، على ملامح الوجه شـريط من الظلال. فوق جبهتها ثنية متفكرة. بدت وكأنهـا إحـدى ملامح الوجه الطبيعية، أكثر الكلمات كانت عن مصـطفى. سألتهم عن موعد حضوره، قالوا: إن الإجـازات مسـتحيلة.

اخشوشن قلب الغزالي. عرضت عليهم أن تعد طعاما لهـم، يأخذونه معهم. ضحكوا. قال واحد منهم: إن الأكـل عنـدهم يسد عين الشمس. رأت في أصواتهم ملامحه. ولمست فيهـا رائحة مصطفى: عاد الصمت فأنبت في القلـوب مخـاوف جديدة. كل ما قالوه عن مصطفى بخير. في لحظة انصرافهم اخرج الرجل حامل الأشرطة الثلاثة فوق كتفه مـن جيـب سترته ورقة. الضوء خافت والورقة البيضاء أكثر الأشـياء وضوحا في المشهد كله، لوح لها بيده:

- دا توكيل.

أطلت من عينيها التساؤلات.

- بموجب التوكيل ده يا أمي.

شرح لها. تذهب أول كل شـهر إلـى الحمامـات، لتصرف مرتب مصطفى، انتشر بداخلها غناء رقراق، كلمات غنتها أيام أن كان القلب أخضر وطريا.

- وهوه.

هزت أياديهم القوية يدها. تحركوا، كان الغزالي يقف بين قدميها:

- وصل الضيوف يا غزالي.

حمل اللمبة الجاز وخرج. انطفأت من الهواء. فعـاد وأشعلها. في الحارة كانت الظلال تتحرك ببطء. ظل الغزالي معهم إلى أن ألحوا عليه أن يعود. وهو عائد إلى البيت شعر برغبة في الغناء. ولكنه خاف ملامح وجـه أمـه المتعـب، فسكت.

## ➢ عندما دخلت كلمة الاستراتيجية في محضر صلح رسمي.

الجلسة المفضلة للرجال بجوار ترعة تـدور حـول البلـد. يقرءون على صفحة مياهها بطء أيامهم، وقت الغروب تكون حمراء. تبدو في بياض القطن المندوف عند برودة الفجـر. أما طول النهار فزرقتها مغسولة لامعة. النهارات الصـحوة في أكتوبر حالات كاذبة. وشمس الشـتاء غيمـة صـفراء. السحب تمر بهدوء وبطء من تحتها وفوقها. الرجال يتكلمون، على الشفاه ترقص الكلمات والتعابير تقال باللغـة العربيـة الفصحى. تنزلق على الألسنة. الأصابع تمتد إلى الراديوهات تعبث بمفاتيحها، تحولها إلى كل الاتجاهـات. تلتصـق بهـا الأذن. الذهن يصيبه الضنى وهو يحاول أن يفهم ما تتصـيده

الآذان من أصوات. الشيخ سليمان، موزع الخطابات له أكثر من عمل آخر. أهمها أنه يشرح للناس ما يحدث. لا يـدري أحد من أين يجد اليقين الذي يستريح له في حكايـاه هـذه. يقترب من حلقة الرجال. يرمي عليهم السـلام ويبـدأ فـي الحديث. بعد كلمة أو كلمتين، تمتد أصـابع الشـباب لتعيـد النظارات الطبية إلى مكانها الطبيعي فوق الأنف.

قال الشيخ سليمان:

- أصل الترانيجة.

الكلمة الأولى كانت عامية. الثانية لم تخرج من بين شـفتيه صحيحة. عدوى الابتسامة لفت دائرة المحيطين به. يسألونه. الجهل اتهام جاهز على لسانه. يرمي به الكل.

- وإيه معنى الاستراتيجية؟

الشاب نطقها صحيحة، فاستقر في وعـي الشـيخ سـليمان إحساس بالقهر.

انتفض الشيخ سليمان:

- إيه شغل المدارس دا يا ولد أنت وهو.

كالعادة، انتهت الجلسة بمحضر صلح مكتـوب مـن أصـل وصورتين، وموقع عليه مـن المتعـاركين جميعـا، بـألا يتعرضوا لبعضهم بعد ذلك. ومعتمد من العمدة وشيخ البلـد. الخفير النوبتجي الذي يكتب محضر الصلح في دوار العمـدة وقف طويلا أمام الكلمة. سأل الشاب:

- أللا إيه الكلمة سبب العراك؟

نطقها الشاب أكثر من مرة. ولكن الخفير لم يستطع كتابتهـا. ضحك الكل. ولكن الخفير حول الموقف لصالحه، بأن خـبط المنضدة بكلوة يده.

وأمر الشاب:

- استهجى الكلمة يا أستاذ. حا امتحنك.

قال الشاب وسط الضحكات:

- ألف لام ألف. سين. ته.

## ➢ في الصباح والسماء:

**تليفون العمدة يدق**

في فجر اليوم الخامس عشر بعد رحيل مصطفى، وقع حادث هز الضهرية كلها. شاهد خفير الدرك المعين في أول البلـد من الناحية القبلية مع أول قطرات الضوء نقطة بعيدة تتحرك ببطء. على آخر الشوف. كانت النقطة تتحـرك وتتوقـف. ترتفع وتنخفض. الفجر هو أحلى أوقات النوم في الليل كلـه. ولكن الخفير أصبح أكثر يقظة. عندما انعكس علـى حديـد بندقيته الصدئ أول خيط رفيع من ضوء الشـمس، كانـت النقطة قد أصبحت عند مشارف البلد، النقطة لم تكن سـوى شاب من أبناء البلد. عرفه الخفير على الفور:

- عبد ا .. مالك؟

الدفعة عبد ا لم يرد.. مد يده للخفير الذي اقترب منه. وبدلا من السؤال والجواب. أمسك بيده اليسرى، ولفها حول كتفه، حمله وساربه. كل الذين شاهدوا الخفير وعبـد ا ، كـانوا ذاهبين إلى الجامع للصلاة أو الحقول للعمل. كلهـم عـادوا. ساورا وراء الخفير الذي يسند عبد ا . بل يحمله من حـارة لحارة. ازداد العدد، أطفـال وشـيوخ ونسـاء، تهامسـوا..

ففضحهم البخار الخارج من الأفواه مع الكلمـات. وعكـرت الهمسات صفو الحارات وهدوءها الصباحي. فسكتوا. حينما وصل الخفير إلى باب بيت عبد ا . كانت الضـهرية كلهـا وراءه، خبط الباب بقدميه. ودخل الخفير سـاندا عبـد ا . خرج الخفير بعد قليل بمفرده. ليؤكد لهم. أن عبد ا أصيب برصاصة في فخذه. عبر وحارب وأصـيب. عـولج فـي المستشفى العسكري. وحضر في إجازة مرضية. وإن كـان الجرح لا يزال طريا. قال رجل منهم:

- يعني في فترة نقاهة.

سأله الخفير:

- فترة إيه يا خويا؟

نبت من الكتلة الدافئة من الناس، سؤال واحد:

- عقبال ابننا يا رب.

قالتها أكثر من امرأة. وهن في الطريق إلى بيـوتهن. وفـي دوار العمدة. كان التليفـون يـدق. دقاتـه تحـرك الخفيـر النوبتجي. الذي يقوم مسرعا كالملسوع. يمسك المسماع بيده. يقربه من أذنه وينصت، خطوط التعب تستريح على ملامـح وجهه:

- يصير التنبيه على الجندي مرزوق أبو السـعود. بتسـليم نفسه إلى مكتب التعبئة بمركز إيتاي البارود. ليس متـأخرا عن سعت.. يوم.. يحمل المراسلة النوبتجي الإشارة. مكتوبة على ورقة صغيرة مشرشرة الحواشي يذهب بها إلى العمدة، أو نائبه. يقرؤها بتمهل. وبقلمه الأبنوس القديم يؤشر عليـه. "للتنبيه على المذكور، والتوقيع منه بالمعلومية" يذهب الخفير المراسلة إلى بيت مرزوق وهو يفهم ما سيحدث هناك.

لحظة الوداع. ستقول أم مرزوق له بحروف مغموسـة فـي دموع العين:

- أول ما توصل ابعت لنا جواب يا كبدي.